

الرسول والتفرقة العنصرية

د. عبد العزيز كامل

(١) مدخل

هذه الدراسة متابعة لبحث عنوانه «الاسلام والتفرقة العنصرية» سبق أن نشرته للكاتب هيئة اليونسكو (١٩٧٠ م) في سلسلة عنوانها «التفرقة العنصرية والفكر الحديث» متناولة موقف الديانات والمذاهب الفلسفية الكبرى من هذه المشكلة^(١).

وانتهيت في البحث السابق الى نتائج خلاصتها:

- (١) ان الاسلام يدعو الى العلم والمنهج العلمي . ومن هنا يأتي تقديره لمنجزات العلم في الوحدة الانسانية، وما يرتبط بها من مقاومة التفرقة العنصرية .
- (٢) ان الاسلام يعتبر الفرد مسؤولاً عن عمله، ولا يبنى اية مسؤولية على صفة خارجة عن قدرة الفرد كاللون .

(٣) يقيم الاسلام العلاقة بين الانسان والبيئة الطبيعية ومكوناتها على اساس الرحمة والاستفادة الطيبة .

(٤) يعتبر الاسلام الانسانية اسيرة كبيرة خلقها الله من نفس واحدة، وان

* مستشار أمير دولة الكويت وقد سبق أن شغل الكاتب المناصب العلمية والتنفيذية الآتية : أستاذ بجامعة القاهرة . مدير جامعة الكويت . نائب رئيس الوزراء للشؤون الدينية ووزيراً لأوقاف وشؤون الأزهر بجمهورية مصر العربية

** قدم هذا البحث إلى المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية - الدوحة - محرم ١٤٠٠ هـ .

اختلاف اللسنة والالوان فيها مظهر من مظاهر قدرة الله وحكمته .

(٥) يعتبر الاسلام الانبياء اخوة، ويدعوننا الى الاقتداء بهديهم .

(٦) يطبق الاسلام قاعدة الاخاء والمساواة عملياً في الحياة .

(٧) حياة الرسول صلى الله عليه وسلم نموذج متكامل لهذا الاخاء، وجاءت على هديه مواقف سلفنا الصالحين، والذين اتبعوهم باحسان .

(٨) لم يرجع القرآن لوناً على لون . والالوان في الكتاب المبين مظهر لقدرة الله .

(٩) ما جاء في القرآن من تفاضل بين الناس، كان بعد توفير فرص متكافئة .

(١٠) لا يرضى الاسلام بتحول مواهب الافراد أو مواقعهم الاجتماعية الى مراكز قوة، يجتمعون فيها على اساس اللون أو أي مظهر تمييز آخر، فيضطهدون بقية فئات المجتمع، وينقلون هذا الى الاجيال التالية، فروقاً واحقاداً .

والآن :

ـ ما مجال الاضافة الى هذه الاصول والتطبيقات في موضوع التفرقة العنصرية والاسلام؟ . . .

١ـ عملياً: كان البحث الاول محدوداً بمساحة لا يستطيع ان يتخطاها حتى تكون السلسلة التي يصدرها اليونسكو متوازنة من حيث الطول .

٢ـ وكان على كل كاتب ان يكتب عن دينه «من الداخل» مبيناً موقفه من التفرقة العنصرية . وبهذا استبعدت المسلسلة الدراسات المقارنة، وان جاءت عنها اشارات عابرة لتأكيد ادانة التفرقة العنصرية .

٣ـ كذلك لم يكن هناك مجال لابرار الفروق الكبيرة بين ممارسات الحياة الاسلامية التي استطاعت ان تمتص مشكلات التفرقة العنصرية، وبين الممارسات العنيفة والظالمة التي شهدتها العالم الغربي لا زالت آثارها وقطاعات منها، نابضة بالألم تحاول ان تحطم قيودها لتسعد بالحرية التي لم يحرم منها ربنا

طائرا يطير بجناحيه، فضلا عن اكرم مخلوقاته: الانسان . . . ومنه اصطفى الانبياء والمرسلين وله خلق ما في الارض جميعاً^(٢).

٤- ولقد حاول بعض كتاب الغرب- ولا يزال نفر منهم يحاول- تشويه موقف الاسلام من التفرقة العنصرية. ولا يعدمون في طول التاريخ الاسلامي وعرضه أمثلة يؤيدون بها وجود مظاهر للعنصرية في بعض العصور والاقطار الاسلامية ويعتبرون هذا «اسلاماً» أو «تطبيقاً اسلامياً». هذا بيت شعر، او قول لحاكم، او جملة في حوار، او تصرف لاحد الولاة، او ثورة قامت على اساس عنصري ويحاولون بتركيز الضغط على هذه الاحداث صرف الانظار- ولو جزئياً- عن الذروة الرفيعة التي صعدت اليها مبادئ الاسلام بالانسان، وعن الممارسات المضيئة والايجابية التي شهدتها المجتمع الاسلامي.

اما ما استندوا اليه من ممارسات فهي توزن بميزان الاسلام الصحيح: يدينها اذا صدرت عن مسلم او غير مسلم. فحسن اسلام المرء يقاس بمدى ايمانه بالاسلام عقيدة، وتطبيقه في الحياة سلوكاً.

هذا الموضوع- وأعني به شبهات بعض المستشرقين- يحتاج بدوره الى وقفة مراجعة وتصحيح لمنهجه وتطبيقه.

٥- وسيقتصر هذا البحث على الدراسة المقارنة مع الديانات الكبرى مع العناية بالجانب التطبيقي الذي تبدو به مكانة الرسول او المعلم. وهنا يأتي سؤال أول:-

-ما علاقة زمان ومكان الرسالة بموضوع الدراسة؟.

(٢) رسول من أنفسكم

وتتعدد المدارس الفكرية التي تتناول الجزيرة العربية قبيل ظهور الاسلام ويبرز فيها اتجاهان رئيسيان:

-يحاول الأول ان يؤكد المستوى الخفيض الذي كانت تعيش فيه الجزيرة:

أمية وعادات سيئة، وحروباً قبلية طاحنة وثورات، ووأد بنات، وعبادة أوثان.
كأن الإسلام جاء ليحيل أدنى البيئات الى أرقى مستويات التقدم.

ويحاول الثاني أن يبرز مقومات هذه البيئة- على أساس مقارن- لبيان لماذا
كانت انسب البيئات وقتئذ لظهور الاسلام^(٢).

المكان

ومع ما يبدو من تعارض ظاهري بين الاتجاهين: تهوينا من شأن هذه
البيئة او ابرازاً لمقوماتها، فإن البحث الموضوعي يبرز لهذه البيئة- عند ظهور
الاسلام مقومات لم تكن متوفرة في غيرها من بيئات العالم القديم، وان كانت لهذا
كأي بيئة أخرى- مشكلاتها التي ينبغي عليها ان تقابلها. ولما جاء الاسلام افاد
من مقومات هذه البيئة ليتغلب على مشكلاتها، وليحمل هدية الله الى العالم من
حولها.

من حيث الموقع: كانت الجزيرة العربية متوسطة بين قارات العالم
القديم. كانت مفتوحة على افريقيا من الجنوب الغربي والغرب والشمال
الغربي، ولها بها صلات برية وبحرية عبر سيناء والبحر الأحمر ومضيق باب
المنذب وخليج عدن وبحر العرب. وظلت هذه الصلات قائمة عبر التاريخ.
وكانت على صلة بأرض الروم في ديار الشام- وقتئذ- وما وراءها في الغرب
والشمال الغربي.

وكانت على صلة بأرض فارس وما وراءها براً وبحراً الى قلب آسيا
واقطارها... الموسمية في الجنوب والشرق.

وانعكس هذا على علاقات السلالات البشرية فيها. . فكانت من أنسب
الاماكن وقتئذ، ان لم تكن انسبها جميعاً للقاء السلمي والتعايش بين
البشر... كانت ايضاً وسطاً من حيث المكان، نزلت فيها رسالة اخرجت امة
وسطاً من حيث المبادئ والتطبيق... (والوسط المقصود هنا هو الافضل والارفع
المصون عن الافراط والتفريط^(٤)).

لم تكن منطقة تراكم كالهند اذا دخلتها الحضارات تجمعت فيها وتدافعت ولا تجدها من الجنوب منفذاً، فاهند من الجنوب طريق مغلق . ولم تكن الجزيرة منطقة نائية كالشرق الأقصى او جنوب افريقية او غرب اوروبا .

كذلك لم تكن منطقة رعوية عنيفة ماثجة بالصراعات كقلب آسيا . . .

الزمان :

وكانت مبرأة من القهر السياسي والترف الحضاري الذي تعيش فيه وقتئذ اقوى قوتين عالميتين : دولتا الفرس والروم .

كانت انسب مناطق الحرية في العالم، فضلاً عن حرمة البيت العتيق، أول بيت وضع للناس . . .

وعند قيام الاسلام كانت الصراعات في هذه المنطقة الوسطى قد انهكت قوى الفرس والروم، وتطلعت النفوس الى دورة جديدة من دورات الحياة يقودها النبي الامي ﷺ الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث، ويضع عنهم اصرهم والاغلال التي كانت عليهم، فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي انزل معه اولئك هم المفلحون ﴿ [الاعراف : ١٥٧] .

الانسان :

ويأتي المصطفى ﷺ من بيت ابراهيم وذرية اسماعيل :

نشأ ابراهيم في العراق، وهاجر منها الى ديار الشام، ثم الى مصر وهي موطن زوجه هاجر ام اسماعيل . . . وعاش في الحجاز وتزوج اسماعيل من جرهم المهاجرة من اليمن . . . فجاء بيته صورة حية للقاء بين هذه الاقطار جميعاً . . . ورفع اسماعيل مع ابيه القواعد من البيت ليكون مثابة للناس وأمناء . . . وفي هذا الجو التاريخي والمكاني، وعلى حين فترة من الرسل، جاء المصطفى ﷺ .

وتعودت عينه من طفولته، كما تعود قومه من حوله في أن يروا اناساً تختلف
ألسنتهم وألوانهم، تجمعهم رحاب مكة، ويفد إليها الحجيج في الأشهر الحرم،
يعيشون اخاء انسانياً وسماحة هي من ميراث ابراهيم عليه السلام.

ووثقت قريش روابط الجزيرة برحلة الشتاء والصيف، وامتدت آفاق
الرحلات الى مناطق الاستقرار حولها، واتسعت دوائرها وتعددت وسائلها، وان
كان شريانها الاساسي طريق التجارة بين اليمن والشام.

مثل هذه الظروف المكانية والزمانية والانسانية، تفتح الطريق امام
سماحة أشمل، هي عودة الى منابع الاصلة التي ارتوت منها مكة... منابع
وصفها الله بقوله في كتابه ﴿وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة ابيكم
ابراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم
وتكونوا شهداء على الناس فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو
مولاكم فنعم المولى ونعم النصير﴾. [الحج: ٧٨].

(٣) ألم يجدك يتيماً فآوى؟

هناك جانب من طفولة المصطفى صلى الله عليه وسلم يمس موضوع
الفرقة العنصرية:

كانت ام ايمن بركة الحبشية جارية في بيت عبد الله بن عبد المطلب.
وبقيت في البيت بعد وفاته في صحبة آمنة بنت وهب. وكان من صنع الله ان
حضرت ولادة المصطفى صلى الله عليه وسلم وكانت دايتة. وهي التي بشرت به
جده عبد المطلب. وبقيت في البيت حاضنة للمصطفى صلى الله عليه وسلم
تشهد طفولته المباركة. وعندما سافرت آمنة الى المدينة والنبي صلى الله عليه
وسلم في السادسة من عمره- لزيارة اخواله ومثوى عبد الله، كانت أم أيمن في
صحبتها، ويذكر المصطفى ﷺ هذه الأيام وما مارس فيها وتعلم من انواع
الرياضة كالسباحة^(٥) وفي طريق العودة الى مكة مرضت آمنة...

وكما شهدت ام ايمن ميلاد المصطفى شهدت معه وداع آمنة، وادعائها
مشواها في الابواء... ذهبوا الى المدينة ثلاثة وعادوا اثنين...

احياناً يقترن في ذهني مشهذان: مشهد الرسول وطفولته وهو يودع امه،
في صحبة ام ايمن رضي الله عنها... هي الحاضنة والام بعد الام، والرفيقة في
السفر، والشريكة في الألم... ومشهد الرسول ثاني اثنين اذ هما في الغار، ومن
حوله الاعداء وفي قلبه الايمان، وفي رفقته الصاحب الامين، وسكينة الله تنزل،
وجنود الله تؤيد.

اذكر الصحراء على اتساعها، وحفرة في الارض تثوي فيها آمنة بنت
وهب في الابواء. والمصطفى وام بركة يحملان الحزن الكبير... وما يكاد يسعد
برؤية اخواله في المدينة حتى يفقد امه... وهذه الصالحة الطيبة رفيقته في رحلة
العودة... اذكر دخوله مكة حزيناً مع أم بركة وخروجه مهاجراً حزيناً مع ابي
بكر، وصوت الحق يعده بالعودة اليها... ﴿ان الذي فرض عليك القرآن لرادك
الى معاد﴾ [القصص: ٨٥].

كان من صنع الله ان يرى المصطفى ﷺ في طفولته من هذه الحاضنة
الحبشية آيات من الحب والمودة، تبرز حقيقة الجوهر الانساني في ارفع
صورها... حقيقة ترتفع فوق فروق اللون ودعوى العنصرية الى حيث الانسان
كرامة واخاء ومرحمة...

وكان من صنع الله ان تكون طفولة المصطفى ﷺ في بيت تلتقي فيه
الاجناس كما كان في بيثة كرمها الله بالبيت العتيق ومن حوله يطوف الناس لا
فرق بين الوان واجناس...

ولقد ظلت ام ايمن قريبة من المصطفى. ورغبة في توثيق رباطها بالبيت
النبيوي زوجها من زيد بن حارثة، ومنها انجب ولده اسامة، واكرم الله الزوج
والابن بالشهادة في سبيل الله. رضي الله عنهم أجمعين.

وتعيش ام ايمن على الايمان، وتطول ايامها فتشهد رحيل المصطفى ﷺ

الى الرفيق الأعلى. ويدخل عليها ابو بكر وعمر (رض) بعد الرحيل وهي تبكي، فقالا: يا أم ايمن ما يبكيك؟ فما عند الله خير لرسوله. قالت: اني لأعلم ان ما عند الله خير لرسوله، وانما ابكي لانقطاع خبر السماء... فهيجتهما على البكاء فبكيا... .

وفي فصل موجز عقده الامام ابن القيم في كتابه زاد المعاد لمرضعات الرسول ﷺ وحواضنه، تحس هذا الصنع الالهي في حياته... وكيف نلتقي حول هذه الطفولة: البادية والحضر، والاشراف والموالي، من نشأوا في الجزيرة العربية ومن وفدوا اليها من افريقية... يقول الامام «فصل في امهاته ﷺ اللاتي ارضعنه: فمنهن ثوبية مولاة ابي لهب ارضعته اياما وارضعت معه ابا سلمة المخزومي بلبن ابنها مسروح وارضعت معها عمه حمزة بن عبد المطلب... ثم ارضعته حليلة السعدية بلبن ابنها عبد الله... ويقول عن حواضنه ﷺ: فمنهن امه آمنة بنت وهب، وثوبية وحليمة والشيمااء ابتتها وهي اخته من الرضاعة... ومنهن الفاضلة الجليلة ام ايمن بركة الحبشية^(٦)».

(٤) اول الوحي... والانسان

وأول الوحي نزولاً... كان خطاباً للرسول والانسان... كل الانسان. جاءه الروح الامين يحمل آيات الله ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الانسان من علق. اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم، علم الانسان ما لم يعلم﴾ [العلق: ١-٥].

وتحس لأول وهلة جوانب التكريم من الله للانسان: فاليه ارسل رسوله. ويصف الله ذاته المقدسة بالربوبية والكرم والعلم. وتبين الآية للانسان رحلتين: رحلة الخلق، من العلق حتى يستوي بشراً سوياً، ورحلة العلم موضحة اهم ادواته وهي القلم، ثم مساره المستمر في قوله تعالى ﴿علم الانسان ما لم يعلم﴾.

وتأتي الآيات التالية- وان كانت متأخرة في نزولها عما قبلها- تحذر الانسان

من الطغيان اذا أحس في نفسه الاستغناء: الطغيان بالمال. بالعلم... بالعصية... ﴿ان الانسان ليطغى أن رآه استغنى﴾. ولنتأمل قوله تعالى: ﴿ان رآه...﴾ ان رأى انه استغنى. ففي الحقيقة لا يستغنى انسان عن ربه، ولا انسان عن انسان. نحن امام الله عباده ومع الناس اخوة.

والعنصرية صورة من صور الطغيان. ويضع ربنا بعدها الميزان بقوله: ﴿ان الى ربك الرجعى﴾. الجميع: المؤمنون والفاسقون. الظالمون والمظلومون... الجبارون والمستضعفون... ﴿ان كل من في السماوات والأرض الا آتى الرحمن عبداً. لقد احصاهم وعدهم عدداً. وكلهم آتية يوم القيامة فردا﴾ [مريم: ٩٣-٩٥].

بهذا المنطق الرباني الانساني بدأت الدعوة الاسلامية مسيرتها. واستجابت لها قلوب مؤمنة، لها مواقعها في كل قطاعات المجتمع المكسي، وانتشرت دواثرها بعد هذا، دوان ان تنقيد بوضع طبقي او لوني او قوة اجتماعية.

(٥) اول المؤمنين

ولقد اطلال بعض المستشرقين القول في ان اول المؤمنين كانوا من الضعفاء والمستضعفين، وحاولوا الربط بينها وبين ثورات العبيد في الامبراطورية الرومانية وحاولوا، من بعد تشبيها بحركات الجماعات او القطاعات المقهورة في المجتمع وربطوا هذا باسباب اجتماعية او اقتصادية... ولا زلنا نجد حديثاً عن فقر الجزيرة العربية وغنى ما حولها وقت الرسالة، وان هذا دفع العرب دفعاً اقتصادياً من الارض الصفراء الى الارض الخضراء... وسار على هذا الخط الفكري نفر من كتاب المسلمين وسنحاول مس الموضوع من حيث ارتباطه بالتفرقة العنصرية.

كان من أول المؤمنين رجال كأي بكر وعبد الرحمن بن عوف. وفتيه كعلي ابن أبي طالب. ونساء كخديجة بنت خويلد وأم أيمن بركة الحبشية واسر كاملة

برجالها ونسائها وشبابها كآل ياسر . كان فيهم الأغنياء كأبي بكر وعبد الرحمن بن عوف . . والفقراء كآل ياسر . وفيهم الاحرار والاشراف من ذؤابة قريش كعلي ابن أبي طالب وجعفر بن أبي طالب ، وفيهم الارقاء والمستضعفون كبلال بن رباح والنهدية وزنيرة . كان فيهم العرب وفيهم الحبش .

ولا نستطيع - موضوعيا - ان نربط هذه الجماعة المؤمنة الأولى بأي قطاع محدد من قطاعات المجتمع المكي .

نعم ، لقد حاربها بعض الاغنياء من سادة مكة ورأوا فيها تهديدا لوضعهم الاقتصادية والاجتماعية ومكانتهم بين العرب . . ولكن لم يكن كل سادة قريش على كلمة سواء في هذا . قريش ذاتها انقسمت بين مؤمن وكافر . بيوتها انقسمت . في العهد المكي كانت ام حبيبة بنت ابي سفيان على الايمان وتحملت اعباء الهجرة الى الحبشة ، وكان ابوها وقتئذ على الكفر وحرب الاسلام^(٧) .

فموازين الفقر والغنى والتحليل الاقتصادي لا تستطيع ان تقدم تفسيراً موضوعياً مقبولاً لتكوين المجتمع الاسلامي في مكة .

هل معنى هذا الغاء تأثير العوامل الاجتماعية والاقتصادية جميعاً؟ لا . ولكن كان المسلمون ينظرون اليها من خلال الاسلام . كان الدين عدلاً واخاء ، وكرامة انسانية تخرج الناس من عبادة الاوثان وبطش الطغاة ومنكر القول والعمل الى عبادة الله والمرحمة . والاسلام فطرة . والحق يخاطب القلب دون حجاب . بل انه ليخترق هذا الحجاب ليصل في القلب الى نقطة منيرة لا يزال يتابع تغذيتها حتى تملأه نوراً

ولم يحفظ الاسلام في مكة للاغنياء غناهم ولا غنى لهم ثرواتهم . ولنذكر مثالين : كهل وشاب . اما الكهل فابو بكر رضي الله عنه . أهلك ماله في شراء الرقيق المعذبين وعققتهم . قال له ابوہ : يا بني اني اراك تعتق رقاباً ضعافاً ، فلو انك اذ فعلت اعتقت رجلاً جلدًا يمنعونك ويقومون دونك؟ فقال ابو بكر ،

يا ابت انما اريد ما اريد الله عز وجل . وعندما هاجر من مكة بعد ثلاثة عشر عاما من اسلامه كانت ثروته اقل بكثير مما كانت عليه عند بدء الدعوة .

أما الشاب فمصعب بن عمير رضي الله عنه . كان غنيا موسعا عليه في الرزق، فلما اسلم حرّمته امه ماله ليعود الى الكفر، فأبى وتحمل شظف الحياة وهاجر من مكة كأفقر ما يهاجر المؤمنون .

ولنتأمل فيما اورده ابن هشام في ذكر عدوان المشركين على المستضعفين ممن اسلم :

«وكان ابو جهل الفاسق الذي يغري بهم (أي بالمؤمنين) في رجال من قريش اذا سمع بالرجل قد اسلم، له شرف ومنعة، أنبه وأخزاه وقال : تركت دين ابيك وهو خير منك . لنسفهن حلمك ولنفيّلن رأيك، ولنضعن شرفك» (وفيل الرأي قبّحه وخطأه) . وان كان تاجرا قال : والله لنكسدن تجارتك ولنهلكن مالك . وان كان ضعيفا ضربه وأغرى به (١ : ٣٤٢) . فكان ممن اقبل على الاسلام - حين تتأمل هذا الخبر - اصحاب الشرف والمنعة، والتجار . . . والضعفاء . . . أي انهم يمثلون - من اول الامر - قطاعات اقتصادية واجتماعية متنوعة، جمع بينهم الايمان . والذين اعتقهم أبو بكر كانوا ارقاء ولكنهم من اصول شتى عربية وغير عربية، ولم يكن للحاجز اللوني أي قيمة في نظر أبي بكر، عندما أنفق ماله في استنقاذ الارقاء من أيدي الكفار .

(٦) وفي المدينة المنورة

وازدادت معالم الصورة وضوحا في مجتمع المدينة المنورة : فقد اجتذب قلوبا طاهرة من مختلف قطاعات المدينة ومستوياتها الاقتصادية والاجتماعية، كما اجتذب مؤمنين اقبلوا اليه من كافة اجزاء الجزيرة العربية وما حولها . ويصور مولانا سليمان الندوى هذا التكوين العالمي لمجتمع الاسلام في المدينة فيقول :

«والآن تعالوا نشاهد مدرسة الرسول العربي الامي : أي طالب هذا؟ هذا ابو بكر، هذا عمر، ذاك عثمان، وذلك علي، وهذان طلحة والزبير ومن

هؤلاء؟ هؤلاء تلاميذ من قريش البطاح، بطاح مكة، وذاتك من غير قريش
انها ابو ذر وانيس من تهامة من قبيلة غفار. وهذان ابو هريرة وطفيل جاءا من
اليمن من احدى قبائلها وتسمى دوس. ومن هذان؟

هذا ابو موسى وذاك معاذ بن جبل قدما من اليمن من قبيلة اخرى، وهذا
ضماد بن ثعلبة من قبيلة الازد القحطانية. وهذا خباب بن الأرت اخو تميم.
ومن أي قبيلة هؤلاء القوم؟ منقذ بن حبان ومنذربن عائذ من قبيلة عبد القيس
استجابا لهذه الدعوة ووفدا اليها من البحرين على الخليج الفارسي. وفيهم عبيد
وجعفر من سادة عمان. وفيهم فروة من معان في بلاد الشام. ومن هؤلاء
الغرباء؟ هذا بلال من بلاد الحبشة، وهذا الابيض يدعى صهيبا الرومي، وهذا
اسمه سلمان الفارسي من ايران، وهذا اخو الديلم يدعى فيروز الديلمي.
وهذا سيخب ومركبود من الأمة الفارسية. فها انتم ترون نماذج لمن تتلمذ على
نبي الانسانية النبي الأمي العربي خاتم المرسلين. لقد كانت حلقة هدايته
مفتوحة لكل الأمم من شتى طوائف البشر»^(٨).

ثم يعقب على هذا بقوله. «لقد تبين لكم ان مدرسة محمد رسول الله
كانت جامعة للناس من جميع الطوائف، وكانت عامة للأمم على اختلاف
الاستتهم وأموالهم وطبقاتهم في الثقافة والمجتمع، وانه لم يكن هناك اي قيد يمنع
أي انسان من الالتحاق بها»^(٩). ثم بين بعد هذا تنوع دراستها وتخصصاتها وانها
كانت مفتوحة امام الصحابة ليختاروا منها ما يوافق اذواقهم ويلائم طباعهم
^(١٠). ولم يكن أي تخصص او طريق مغلقا امام أي صحابي ما دام قادرا على
سلوكه لا يحول بينه وبين التقدم في المجتمع حاجز مالي او لوني او اجتماعي.

(٧) كانوا معه دائما

يبدو من هذا كيف كان من صنع الله لرسوله ان تفتحت عينه - منذ مولده
- على صورة من السماحة العنصرية: ام عربية وحاضنة حبشية. وأكاد انظر
بعين القلب عبر التاريخ الى حجرة في شعب بني هاشم تشهد هذا اللقاء

الانساني بين الاجيال والالوان، والنبي الوليد بين اربعة اذرع تختلف لونا وتلتقي حنانا وحباً. وترحل الأم العربية وتبقى الحاضنة الحبشية يخاطبها بقوله «يا أمه... وتظل قريبة منه في مكة والمدينة حتى رحيله الى الرفيق الاعلى. ويصعبه من الرجال بلال بن رباح. يدخل الاسلام من أشق أبوابه فلا يصرفه العذاب عن الايمان، ويهاجر مع المصطفى (ص) الى المدينة يراه كل يوم خمس مرات على الاقل، يؤذن للصلاة ويقيم الصلاة بين يديه وله في نفوس الصحابة كل توقير واحترام. يقول عمر بن الخطاب (رضي) «ابو بكر سيدنا واعتق سيدنا يعنى بلالا» (١١).

وشهد بلال بدرا واحدا والمشاهد كلها مع رسول الله (ص)، فلما قبض رسول الله ﷺ جاء الى ابي بكر: فاستأذنه في الخروج الى الشام ليرابط في سبيل الله فقال ابو بكر: انشدك الله يا بلال وحرمتي وحقي قد كبرت سني وضعفت واقترت اجلي، فأقام بلال مع أبي بكر حتى توفي ابو بكر. ثم جاء الى عمر فقال مثل ما قال لابي بكر فاذن له فخرج الى الشام فلم يزل بها حتى توفي (١٢).

ولم يؤذن بعد النبي (ﷺ) لاحد من الخلفاء. فلما قدم عمر (رضي الله عنه) الشام لقيه فأمره بالاذان فأذن، فبكي عمر والمسلمون معه (١٣). ويبشره المصطفى (ﷺ) بمكانته الجنة، ويروي مسلم في صحيحه عن ابي هريرة (رضي الله عنه): قال رسول الله ﷺ لبلال صلاة الغداة يا بلال حدثني بأرجى عمل عملته عندك في الاسلام منفعة، فأني سمعت الليلة، خشف نعليك بين يدي في الجنة. قال بلال: ما عملت عملا في الاسلام أرجى عندي منفعة من اني لا اتطهر طهورا تاما في ساعة من ليل ولا نهار الا صليت بذلك الطهور ما كتب الله لي ان اصلي (١٤) (وخشف النعل صوته).

فهذه الصحبة الكريمة للمصطفى (ﷺ) تتخطى حدود الحياة الدنيا الى دار الجزاء، وتظل قائمة بعد ان تبدل الارض غير الأرض والسموات.

وما اللون؟ انه لا يعدو ان يكون مظهرا لقدرة الله تعالى واختبارا لنا نحن

البشر. هل نستطيع - بنور من الاسلام - ان نفذ الى جوهر الانسان حيث التقوى، أم تحجبنا السحب الملونة عن رؤية شمس الحقيقة؟.

(٨) الرسول والاب الاول

وترتبط مقاومة التفرقة العنصرية بقصة الخلق كما جاءت في القرآن الكريم وكما بينتها الاحاديث الشريفة.

يقول الله تعالى «يأيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها ربث بينهما رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والارحام ان الله كان عليكم رقيبا». (النساء : ١).

وفي يوم فتح مكة وقف الرسول (ص) على باب الكعبة ممسكا بعضادتيه وكان مما قال: يامعشر قريش ان الله أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء. الناس من آدم. وآدم من تراب. ثم تلا قوله تعالى «يأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم ان الله عليم خبير»^(١٥). . . (الحجرات : ١٣).

وحدة الأصل مقررة في الاسلام وسنقف قليلا عند كلمة تراب . . . وما يتصل بها في الكتاب والسنة - من كلمات «طين وصلصال وماء مهين». فأحيانا يعقد بعض الكتاب مقابلة بين الطين والروح. بين مادة الارض والنفحة الالهية. وقد يربطون بين الشهوات والتراب والاصل الطيني.

والتراب مظلوم. . . .

ان ربنا جلست قدرته يقول عن خلق الانسان في كتابه العزيز «ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الانسان من طين. ثم جعل نسله من سلاله من ماء مهين. ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والبصر والأفئدة قليلا ما تشكرون». (السجدة : ٦ - ٩).

والايات كلها في مقام الاحسان والتفضل.

الطين من مادة هذه الأرض التي قال الله فيها «والله أنبتكم من الأرض نباتاً» (نوح: ١٧).

والله جل وعلا هو الذي سوى آدم، وهو الذي اختار له هذه المادة . مادة الأرض المنبتة التي تحيا بالمطر، كما تحيا النفوس بالوحي . الأرض كريمة لأنها من خلق الله . خلقها كما خلق السماء . أما الماء المهيّن فهو الماء الضعيف (١٦) الذي لا يستطيع ان يحمي نفسه الا ان تتولاه رحمة الله وعنايته فتجعل منه اللحم والعظم والسمع والبصر والأفئدة .

وعليّنا - بهدى القرآن الكريم والسنة المطهرة - ان نحس كرامة الأصل، كرامة المادة التي خلق الله منها الانسان . فلقد كانت الاختبار لابليس «أأسجد لمن خلقت طينا» (الاسراء: ٦١) . وكأن في الشعور باحتقار الأصل التراخي لمحة من منطق ابليس، تتسرب الى الذهن واعيا او مقلدا .

ان القول بارتباط الشهوات بالطين والأرض، لا أعرف له في مصادر الاسلام اساسا . والمقياس الذي وضعه رب الناس للناس هو «ان أكرمكم عند الله أتقاكم» (الحجرات: ١٣) .

وان اختبار الله للانسان - في الدنيا هو بوجوده هذا المتكامل المنظور . بوجوده الحي . يقول ربنا عن القرآن «ان هو الا ذكر وقرآن مبين لينذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين» (يس: ٦٩ - ٧٠) .

فمع كرامة الأصل نحس أيضا «وحدة المسؤولية التي يتحملها الانسان دون ظلم للجسد التراخي . . . ولنعد الى بساطة الاسلام دون محاولة لتمزيق الوجود الانساني الى جسم وروح، ونفس، وقلب، في حوار نظري يحس به الفرد انه اثنان او ربما ثلاثة او اكثر . وكما اننا لا نقبل انقسام الشخصية - عقليا وصحيا - من نفس القاعدة ان نرفض انقسام المسؤولية . ونحن حين نعاقب

انسانا نعاقبه جميعا، لا نعاقب جسدا ونترك نفسا وروحا. وحين نشبه فنحن نشبه جميعا، ولا ينفي هذا «تخصص» الاجهزة في الكيان الانساني: فبعضها يخزن المعلومات وبعضها يصدر الامر وبعضها ينفذ. ولكن كل هذه الاجهزة انسان واحد.

في هذه الوحدة - وحدة الأصل ووحدة المسؤولية الفردية - جانب له أهميته في دراسة التفرقة العنصرية. ذلك لأن تمام هذه المسؤولية، وعدالتها يقتضي ألا يحمل انسان مسؤولية اخر. يقول ربنا «وكل انسان أَلزمنه طائرته في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسييا. من اهتدى فانما يهتدي لنفسه. ومن ضل فاما يضل عليها. ولا تزر وازرة وزر اخرى. وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا». (الاسراء: ١٣ - ١٥).

وأول ما تلقانا هذه المسؤولية - تاريخيا - في قصة آدم وعلاقته به. وفي الجزء من القصة المتعلق بخلق آدم نجد تقاربا بين ما جاء في سفر التكوين وما جاء في القرآن الكريم:

ففي سفر التكوين وجبل الرب الاله آدم ترابا من الأرض. ونفخ في أنفه نسمة حياة « (تكوين ٢ : ٧) » أما الجزء المتعلق بالحياة في الجنة والمسؤولية والمعصية ونتائجها فيختلف اختلافا جوهريا. وهو ما تعني به هذه الدراسة:

(١) يقول سفر التكوين ان حياة آدم وحواء كانت في الجنة عريا كاملا دون خجل «وكانا كلاهما عريانين آدم وامرأته وهما لا يخجلان» (تكوين ٢ : ٢٥) ويقول الله تعالى في كتابه الكريم مخاطبا آدم «ان لك الاتجوع فيها ولا تعري وانك لا تظمأ فيها ولا تضحى» (طه: ١١٨ - ١١٩). وهذه الاربعة هي الحاجات الاساسية التي يحتاج اليها الانسان: المأكل والمشرب والملبس والظل. وهو من أهداف السكن. هذا بعد ان أكرمه الله بالعلم «وعلم آدم الاسماء كلها» (البقرة: ٣١) وسجد له الملائكة تحية لا عبادة.

(٢) الاغراء في سفر التكوين كان من الحية «أحيل جميع حيوانات البرية

التي عملها الرب الاله » (تكوين ٣ : ١) . وهي التي أغرت حواء . وان حواء أعطت آدم معها فأكل . . فانفتحت أعينها وعلمتا انها عريانان فخاطا أوراق تين وصنعا لأنفسهما مآزر . وان الشجرة المحرمة هي «شجرة معرفة الخير والشر» . «لأنك يوم تأكل منها موتا تموت» (تكوين ٢ : ١٦ - ١٨) . بينما المسؤولية في القرآن مشتركة . الاغواء من الشيطان .

«فوسوس لهما الشيطان ليبيدي لهما ماووري عنهما من سوءاتهما» . وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة الا ان تكونا ملكين او تكونا من الخالدين . وقاسمهما اني لكما لمن الناصحين . فدلاهما بغرور . فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة . وناداهما ربهما ألم انهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما ان الشيطان لكما عدو مبين . » (الأعراف : ٢٠ - ٢٢) .

فاذا كانت المعرفة قد توفرت لآدم ، ومن بعدها التقدير المتمثل في سجود الملائكة ، ثم السكن في الجنة والأمان من الجوع والعري والظمأ وحر الشمس فما بقى له ؟ جاءه الشيطان من الامل في «الخلد وملك لا يبلى» . وبهذا يتفوق على الملائكة بما آتاه الله من العلم ، ويستوى معهم في الخلود . كان خطأ الى اعلى - اذا جاز لنا ان نستخدم هذا التعبير - أخطأ آدم حبا في الاقتراب من الله ، فنزلت قدمه وهو يظن نفسه يصعد . «فدلاهما بغرور» . (الأعراف : ٢٢) .

(٣) وعندما حاسب الله آدم على الخطيئة في رواية سفر التكوين كان من قوله «المرأة التي جعلتها معي هي اعطتني من الشجرة فأكلت . فقال الرب الاله للمرأة : ما هذا الذي فعلت . فقالت المرأة : الحية غرتني فأكلت . (تكوين ٣ : ١٢ - ١٣) . آدم يلقي المسؤولية على حواء . حواء تلقي المسؤولية على الحية . والحية وحدها هي التي تلوذ بالصمت دون ان تتبرأ مما فعلت . . . والصورة في القرآن مختلفة : فما دامت المسؤولية مشتركة بينه وبين زوجه فلا مجال لان يحملها احدهما دون الآخر ، وانما بادرا بالاعتراف بالخطأ والتوبة «وناداهما ربهما ألم انهكما

عن تلكما الشجرة وأقل لكم ان الشيطان لكما عدو مبين . قالوا ربنا ظلمنا أنفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين» . . . (الأعراف : ٢٢ - ٢٣) .

(٤) وتصل بنا القصة الى ذروتها في قضية المسؤولية :

ففي سفر التكوين يحمل الله آدم وحواء والحية المسؤولية وتنتقل الى اعقابهم بينما يقبل الله توبة آدم في القرآن ليبدأ بعد هذا مرحلة جديدة من حياته مرحلة - بعد قبول التوبة - بصحيفة بيضاء ليس فيها عقاب الخطأ الأول ولنعد الى سفر التكوين لنقرأ «فقال الرب الاله للحية لانك فعلت هذا ملعونة انت من جميع البهائم ومن جميع وحوش البرية . على بطنك تسعين وترابا تأكلين كل أيام حياتك . واضع عداوة بينك وبين المرأة ، وبين نسلك ونسلها . هو يسحق رأسك وأنت تسحقين عقبه . وقال للمرأة تكثيرا أكثر اتعاب حملك بالوجع تلدين اولادا . والى رجلك يكون اشتياقك وهو يسود عليك . وقال لادم : لانك سمعت لقول امرأتك وأكلت من الشجرة التي أوصيتك قائلا لا تأكل منها ، ملعونة الارض بسببك . بالتعب تأكل منها كل أيام حياتك . وشوكا وحسكا تثبت لك وتأكل عشب الحقل . بعرق وجهك تأكل خبزا حتى تعود الى الأرض التي اخذت منها . لانك تراب والى تراب تعود» (تكوين ٣ : ١٤ - ١٩) . ويستطيع أي دارس لهذا النص ان يحصي كلمات اللعن والسحق والعداوة والتعب والشوك والعرق لآدم وذريته حتى تقوم الساعة من أجل خطأ واحد ، كان تجربة اولى للأب الاول . . ما ذنب أبناء آدم؟ بل ما ذنب أبناء الحية اذا اعتبرناها مسؤولة؟ أتقوم الحياة الانسانية كلها من هذا البدء بكل ما فيه من عقوبة لا ذنب للابناء فيها؟

ان القرآن يختلف عن هذا . وتوبة آدم وقبولها جاءتا في سورة البقرة وسورة طه . يقول الله تعالى :

«فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه انه هو التواب الرحيم» البقرة :

(٣٧) «وعصى آدم ربه فغوى ثم اجتبه ربه فتاب عليه وهدى» . (طه : ١٢١ - ١٢٢) .

حدثت المعصية وتتابعت بعدها الاحداث : توبة من آدم . قبول من الله فانه «هو التواب الرحيم» . تكليف من الله لادم برسالة . هداية على طريق الرسالة . آدم في القصة هو المجتبي المهدي المقبول التوبة .

هو المخطيء الذي امتدت اليه يد التوبة تقبل عثرته رحمة من الله وفضلا .

اما ان الحية تمشي على بطنها فهذا في القرآن لا يعدو ان يكون مظهرا . . لقدرة الله تعالى «والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على اربع يخلق الله ما يشاء ان الله على كل شيء قدير . . » (النور : ١٤٥) .

واما ان المرأة تحمل ولدها وهنا على وهن . فهذا أمر تشترك فيه جميع الثدييات . وقد اثبت العلم قوة الصلة بين الأم ووليدها ، وان هذه المعانة الجسمية والنفسية ، من اسباب هذه الصلة القوية . وكم تفرح الام بحركة جنينها . وكل تجربة الحمل والولادة في الاسلام من ابواب الرحمة «ووصينا الانسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله في عامين ان اشكر لي ولوالديك الي المصير» (لقمان : ١٤) .

واما ان الرجل يتعب في الأرض ، فان الاسلام لم يقيم العلاقة بينها على العداوة وانما خاطبه قائلا «هو الذي جعل لكم الارض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه واليه النشور» (الملك : ١٥) . ويصفها ربنا في كتابه على لسان موسى عليه السلام وهو يعدد امام فرعون نعم الله «الذي جعل لكم الارض مهدا وسلك لكم فيها سبلا وانزل من السماء ماء فاخرجنا به ازواجا من نبات شتى . كلوا وارعوا انعامكم ان في ذلك لآيات لاولي النهى . منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة اخرى» . (طه : ٥٣ - ٥٥) الصورة كلها مودة وتآلف .

ولكن الأمر لن يخلو من عداوة وتنافس وصراع «بعضكم لبعض عدو» .

(البقرة : ٣٦) . ولكن «ولكم في الأرض مستقر ومتاع الى حين» (البقرة : ٣٦)

وننتأمل في كلمتي مستقر ومتاع... هدوء وسكن. والمتاع كما يقول الراغب الاصفهاني «انتفاع تمتد الوقت»^(١٧). ويعقب على الاية السابقة بقوله «تنبيهها ان لكل انسان في الدنيا تمتعا مدة معلومة... وان ذلك في جنب الآخرة غير معتد به» فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة الا قليل» (التوبة: ٣٨).

(٥) وقبل ان انتقل الى النقطة الاخيرة في هذه المقارنة أود أن أشير الى مشهد في سفر التكوين. ويبين النص التالي السبب المباشر لاجراج آدم من الجنة «وقال الرب الاله هوذا الانسان قد صار كواحد منا عارفا للخير والشر. والان لعله يمد يده ويأخذ من شجرة الحياة ايضا ويأكل ويحيا الى الابد: فأخرجه الرب الاله من جنة عدن ليعمل الارض التي اخذ منها. فطرد الانسان. وأقام شرقي جنة عدن الكروبيم، وهيب سيف متقلب لحراسة طريق شجرة الحياة» (تكوين ٣: ٢٢-٢٤). فآدم لم يأكل من شجرة الحياة. وانما اخرجه الرب من الجنة خشية أن يأكل منها بعد ان اكل من شجرة المعرفة. وزاد على هذا ان وضع هيب سيف متقلب لحراستها... وكأن الله- في رواية سفر التكوين- اخذ آدم باحتمال الخطأ الثاني، لا بالخطأ الأول وحده، وجعله تحت خوف السيف الملتهب لئلا يشق طريقه مرة أخرى الى الجنة بعد ان خرج منها.

هذه هي الظروف التي خرج بها آدم من الجنة في رواية سفر التكوين.

(٦) بين القرآن ان الانسان في هذه الأرض خليفة الله «واذ قال ربك للملائكة اني جاعل في الارض خليفة» (البقرة: ٣٠). ولقد أعطاه الله حرية الارادة والاختيار، وادخله تجربة، وعندما أخطأ تاب عليه وبعثه الى الدنيا رسولا مزودا بالنصح والتوجيه «قلنا اهبطوا منها جميعا فاما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون. والذين كفروا وكذبوا بآياتنا اولئك اصحاب النار هم فيها خالدون» (البقرة: ٣٨ - ٣٩).

والخلافة تكريم من الله... وورد تعبير التكريم في أكثر من موضع من كتاب الله «ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات

وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً. » (الاسراء : ٧٠) وكان هذا الاكرام سببا لحسد ابليس «قال أرأيتك هذا الذي كرمت علي لئن أخرتن الى يوم القيامة لأحتنكن ذريته الا قليلا» (١٨) . . . » (الاسراء : ٦٢).

قصة آدم بهذا منتهية الفصول في القرآن . لم تترك وراءها لذريته ذنبا ولا خطيئة ، وانما درسا يتعلمه الناس . اما مكانة آدم : فهو نبي اصطفاه الله . وتلقى من ربه كلمات . وبينت قصة المعراج جانبا من هذه المكانة عندما لقيه المصطفى ﷺ في السماء الأولى .

حياة آدم بدأت في الجنة . وله عند الله مكان علي وجزاء كريم . وابناء آدم يشعرون جميعا - في نور القرآن - بكرامة هذا الأصل عندما يؤمنون انهم جميعا جاءوا من ذرية نبي كريم .

اما لو سلمنا بان الله لم يغفر لادم ، وان الخطيئة وعقوبتها انتقلت منه الى ذريته ، لكان من المنطقي ان نسلم بانتقال الوضع الاجتماعي او الاقتصادي - المرتبط بلون معين او عنصر معين - من جيل الى جيل . ولو كانت نظرتنا الى ان خطأ واحدا ووحيدا من الاب الاول - آدم - كان سبب الوجود الارضي بكل ما فيه من الآم ، لكان من المنطقي ان نعتبر اي اب او جيل سابق مسؤولا عن اولاده او ذريته وان نحمل الابناء ذنوب واوضاع ونتائج ألوان الآباء .

فتحرير المسؤولية الفردية في الاسلام يقتضي منا اولا تحرير مسؤولية آدم . وهو ما يؤكد القرآن الكريم ، وما جاءت به السنة المطهرة . وهذه الابعاد كلها يمكن ان نجدها في قول المصطفى ﷺ «الناس لآدم وآدم من تراب . أكرمكم عند الله أتقاكم» .

لسنا في الاسلام - اذا ما ذكرنا الاب الاول أو الام الاولى - نذكر معها ذنبا وخطيئة ومسؤولية عما نحن فيه من عناء قد يجعل بعضنا يغفل احيانا عن قوله تعالى «وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها» (ابراهيم : ٣٤) ، نعم الوجود والهداية والخلافة . . . ثم ارتباط العمل بالجزاء في ظل العدل والرحمة التي تشع من قوله

تعالى «وان ليس للانسان الا ما سعى» (النجم : ٣٩) وقوله تعالى «نبيء عبادي
اني انا الغفور الرحيم وان عذابي هو العذاب الاليم». (الحجر : ٤٩ - ٥٠)

(٩) مع انبياء العهد القديم

وتسير بنا الدراسة المقارنة بين تحرير المسؤولية الفردية، وهو ما يؤكد
الاسلام، وبين انتقال المسؤولية كما تصورها بعض نصوص العهد القديم.
ولنذكر من ذلك نماذج:

(١) ودعا موسى جميع بني اسرائيل وقال لهم : «لا يكن لك آلهة
اخرى أمامي . لا تصنع لك تمثالا منحوتا صورة مما في السماء من فوق، وما في
الارض من اسفل، وما في الماء من تحت الارض . لا تسجد لهم ولا تعبدهم
لاني انا الرب الهك اله غيور انتقد ذنوب الاباء في الابداء وفي الجيل الثالث
والرابع من الذين يبغضونني، واصنع احسانا الى الوف من محبي وحافظي
وصاياي». (تثنية ٥ : ٧ - ١٠)

(٢) وفي نفس السفر نقرأ «لا يدخل عموني ولا مؤابي في جماعة الرب حتى
الجيل العاشر. لا يدخل منهم أحد في جماعة الرب الى الابد. من اجل انهم لم
يلاقوكم بالخبز والماء في الطريق عند خروجكم من مصر» (تثنية ٢٣ : ٢ - ٤).
وتتغير اللهجة بعد هذا، وفي ذات السفر، لنقرأ هذه النصوص المشرقة
بالعدل والرحمة :

(٣) «لا تظلم أجيرا مسكينا وفقيرا من اخوتك او من الغرباء الذين في
ارضك في ابوابك. في يومه تعطيه اجرته ولا تغرب عليها الشمس لانه فقير،
واليها حامل نفسه لئلا يصرخ عليك الى الرب فتكون عليك خطية (تثنية ٢٤ :
١٤ - ١٥)

(٤) لا يقتل الاباء عن الأولاد، ولا يقتل الأولاد عن الاباء . كل انسان
بخطيئة يقتل. (تثنية ٢٤ : ١٦).

(٥) ويتأكد هذا المفهوم في سفر حزقيال . . وكأنه يقص حوارا حدث بينه

وبين قومه : « وأنتم تقولون لماذا لا يحمل الابن من اثم الاب؟ أما الابن فقد فعل حقا وعدلا : حفظ جميع فرائضي وعمل بها فحياة يحيا . النفس التي تخطيء هي تموت . الابن لا يحمل من اثم الاب . والاب لا يحمل من اثم الابن . بر البار عليه يكون . وشر الشرير عليه يكون . فاذا رجع الشرير عن جميع خطاياہ التي فعلها وحفظ كل فرائضي وفعل حقا وعدلا يحيا . لا يموت . كل معاصيه التي فعلها لا تذكر عليه ، في بره الذي عمل يحيا . هل مسرة أسر بموت الشرير؟ يقول السيد الرب . الا برجوعه عن طريقه فيحيا . (حزقيال ١٨ : ١٦ - ٢٣) ويسير بنا السفر في هذا الخط المشرى بالعدل والتوبة والترغيب في الطاعة والترهيب من المعصية .

ومع الاتجاهات الفكرية المتباينة لهذه النصوص اذكر ما كتبه موريس بوكاي عن اسفار العهد القديم «لقد دونت وأكملت وروجعت الاسفار التي يتكون منها فيما بين القرن العاشر والقرن الأول قبل الميلاد

ان الوحي يختلط بكل هذه الكتابات . ولكننا لا نملك اليوم الا النصوص التي خلفها لنا الكتاب الذين عاجلوا النصوص على سجيتهم وحسب الظروف التي عاشوها والضرورات التي كان عليهم مواجهتها (١٩) .

(١٠) مع نصوص العهد الجديد

واذا كنا قد رأينا في العهد القديم نصوصا تذهب الى تأكيد المسؤولية الفردية ، ونصوصا تذهب الى انتقال المسؤولية عبر الأجيال ، بحيث يحمل الابناء في ظلها - اوزار الاباء ، او الثمار المرة لأوضاعهم الاجتماعية ، او الحاجز اللوني الذي يعيشون فيه ، فان هذه القضية قابلها العهد الجديد وكان عليه ان يبحث لها عن حل .

وكانت نصوص سفر التكوين - وبخاصة قصة آدم والخطيئة الاولى فيه وما وقع على آدم وزوجه - وحتى على الحية - من عقوبة - اول هذه القضايا ، باعتبارها مرتبطة ببداية الحياة الانسانية على الأرض .

(١) وحين . . . نرجع الى انجيل متى سنقرأ ما جاء به على لسان المسيح عليه السلام، في الموعظة على الجبل، من توجيه الى فعل الخير حتى مع الذين سيئون، ودفع السيئة بالحسنة، والاخلاص في العمل. وفي ختامها فقرة تؤكد المسؤولية الفردية بكل وضوح: «فكل من يسمع اقوالي هذه ويعمل بها اشبهه برجل عاقل بنى بيته على الصخر، فنزل المطر وجاءت الانهار، وهبت الرياح، ووقعت على ذلك البيت فلم يسقط لانه كان مؤسسا على الصخر.

وكل من يسمع اقوالي هذه ولا يعمل بها يشبه برجل جاهل بنى بيته على الرمل، فنزل المطر وجاءت الانهار، وهبت الرياح، وصدمت ذلك البيت فسقط، وكان سقوطه عظيما. (متى ٧: ٢٤، ٢٧).

اذكر معها قول الله تعالى «أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به في نار جهنم والله لا يهدي القوم الظالمين. (التوبة: ١٠٩).

(٢) وفي نفس الموعظة نقرأ ما جاء على لسان المسيح عليه السلام: لا تظنوا اني جئت لأنقض الناموس او الانبياء. ما جئت لأنقض بل لأكمل. . . (متى ٥: ١٧). وما جاء في سفر التكوين عن انتقال المسؤولية لا يجد العهد الجديد امامه الا ان ينفيه او يلحقه بمغفرة. والنفي غير وارد لانه نقض للناموس، فلم تبق الا المغفرة. . . ولكن المغفرة تكون لصاحب الخطأ. والخطأ هنا انتقل اثره وسار طولا في الأجيال وعرضا في الافاق يحمله كل من ينتسب الى آدم. ومن هنا نبعت عقيدة «الفداء». ولا نستطيع ان نتصور العدل الالهي مع وجود هذه الخطيئة مستمرة الاثر في حياة الناس. وفي هذه العقيدة نقرأ النصوص الآتية: -

(٣) من اراد ان يصير فيكم عظيما يكون لكم خادما. ومن اراد ان يصير فيكم اوليا يكون للجميع عبدا. لان ابن الانسان ايضا لم يأت ليخدم بل ليخدم وليبذل نفسه فدية عن كثيرين (مرقس ١٠: ٤٣ - ٤٥).

(٤) والنص على الفداء في انجيل يوحنا اكثر وضوحا «لانه لم يرسل الله ابنه الى العالم ليدين العالم بل يخلص به العالم». (يوحنا ٣ : ١٧).

(٥) وتولى بولس الرسول الدعوة الى هذه العقيدة وشرحها. يقول في رسالته الى أهل رومية «الجميع أخطأوا وأعوزهم مجد الله، متبررين مجانا بنعمته بالفداء الذي ببسوع المسيح، الذي قدمه الله كفارة بالايمان بدمه، لاطهار بره من اجل الصفح عن الخطايا السالفة، بامهال الله، لاطهار بره في الزمان الحاضر...» (٣ : ٢٣ - ٢٦). وبغير الفداء - في العهد الجديد تظل الخطيئة قائمة كما جاءت في العهد القديم.

(٦) ويرتبط بهذا ايضا سر التعميد في المسيحية، فهو يطهر الوليد من الخطيئة الاصلية. ولا بد ان يقوم به رجل الدين عندما يغمس الطفل في ماء بشعائر معينة. وينشأ الطفل ليعتقد ان المسيح حمل عن البشر وزر الخطيئة. وانه المخلص والفادي. وان اثر الخطيئة ظل من عهد آدم حتى جاء المسيح فحملها عنمن قبله ومن بعده (٢٠).

والهدف الذي قصده العهد الجديد وهو المغفرة - وصل اليه بعد رحلة طويلة بين الخطيئة الأولى، وانتقلها، ثم مجيء الفادي والمخلص. أي ان العهد الجديد أقر اولاً مبدأ انتقال المسؤولية من جيل الى جيل، ثم فتح الطريق الى المغفرة بالفداء.

اما الاسلام فجعل المغفرة من الله لآدم مباشرة. ولم يدخل ابناء آدم في القصة «وعصى آدم ربه فغوى ثم اجتبه ربه فتاب عليه وهدي»، (طه : ١٢١ - ١٢٢). والعدل الالهي بهذا في القرآن أقرب. وقصة الانسانية مشرقة. وحياتنا هنا خلافة الله. والوحي نور. وباب التوبة مفتوح من عهد آدم. والأرض صديقة. والسماء صديقة. والكون صديق «هو الذي خلق لكم ما في الارض جميعا ثم استوى الى السماء فسواهن سبع سماوات وهو بكل شيء عليم. واذ قال ربك للملائكة اني جاعل في الأرض خليفة» (البقرة : ٢٩ - ٣٠).

ومع تأكيد مسؤولية آدم الفردية، واعطائه فرصة التجربة والخطأ، في ظل من التوبة والرحمة والهداية، تتحدد مسؤوليات الافراد من بعده، بحيث لا يحمل انسان مسؤولية اخر. وبالتالي يسقط الاساس «الديني» لاي تفرقة عنصرية.

اقول: يسقط الاساس الديني للتفرقة العنصرية لان بعض الكنائس اتخذت من بعض نصوص العهدين القديم والجديد، ما تبرر به استبعاد الافريقيين أو الهنود الحمر. وعلى سبيل المثال كنيسة الاصلاح الهولندية في جنوب افريقيا تحاول ان تبرز عدوانها على الافريقيين بنصوص دينية: كالنص الخاص بكنعان بن نوح في العهد القديم على لسان نوح «ملعون كنعان. عبد العبيد يتون لاختوته» (تكوين ٩ : ٢٥) ثم ما جاء عن وجوب طاعة العبيد لسادتهم في رسالة بولس الرسول الى أهل افسس «ايها العبيد أطيعوا سادتكم حسب الجسد بخوف ورعدة في بساطة قلوبكم كما للمسيح» (٦ : ٥).

ثم يوصي السادة بالعبيد «وانتم ايها السادة افعلوا لهم هذه الامور تاركين التهديد عالمين ان سيدكم انتم ايضا في السماوات وليس عنده محابة» (٦ : ٩).

ولقد استطاع السادة ان يفرضوا سلطانهم وينالوا ما يرونه حقا لهم. اما العبيد ومن جاء بعدهم من اصحاب الارض في افريقية، والذين تم استعبادهم في ارضهم او عبر المحيط، فلم يستطيعوا ان يستخلصوا حقا الا بعد ان دفعوا فيه الغالي من الدماء والارواح، ولا زال الصراع قائما. (٢١).

(للبحث صلة)

مكتبة البحث

(١) عبد العزيز كامل: الاسلام والتفرقة العنصرية. اليونسكو ١٩٧٠ م - من سلسلة المسألة العنصرية والفكر الحديث. وله طبعت بالانجليزية والفرنسية والفارسية صادرة ايضا عن اليونسكو.

(٢) كنموذج يمكن الرجوع الى :

(بنتون: العلاقات العنصرية).

وفي هذا الفصل السادس من كتابه يدرس الرق والعالم الجديد.

(٣) عبد العزيز كامل: قيام الاسلام: دراسة في الجغرافيا التاريخية.

محاضرة في الموسم الثقافي الثالث للازهر الشريف. قاعة الامام محمد عبده.

١٣٨٠ هـ / ١٩٦١ م.

(٤) الراغب الاصفهاني: معجم مفردات الفاظ القرآن الكريم ط. بيروت ص

٥٩٩/.

(٥) طبقات ابن سعد ١ : ١١٦ ط. بيروت.

(٦) ابن القيم: زاد الميعاد. ١ : ١٩ ط. المصرية. القاهرة.

(٧) سيرة ابن هشام ٤ : ٦ ط. الحلبي. وفي مراجعة مهاجري المسلمين الى

الحبشة - كنموذج - نرى كيف كانت الاسر منقسمة بين مؤمن

وكافر

(٨) سليمان الندوي الرسالة المحمدية ص ١٥٠ ط. دمشق.

(٩) نفس المرجع ص / ١٥١.

(١٠) نفس المرجع ص / ١٥٢.

(١١) طبقات ابن سعد ٧ : ٣٨٥.

(١٢) نفس المرجع ٧ : ٣٨٦.

- (١٣) ابن خلكان : وفيات الاعيان ٣ : ٧٠ ط . بيروت .
- (١٤) المنذري : مختصر صحيح مسلم ص / ٢٠٦ ط . الكويت .
- (١٥) ابن القيم زاد المعاد ٢ : ١٦٥
- (١٦) مفردات الراغب الاصفهاني : مادة مهن ص / ٥٤٥ .
- (١٧) نفس المرجع مادة «متع» ص / ٤٨١ .
- (١٨) يجوز ان يكون من قوهم حنك الدابة أصبت حنكها باللجام والرسن .
ويجوز ان يكون من قوهم احتنك الجراد الارض اى استولى
بحنكه عليها فأكلها واستأصلها فيكون معناه لاستولين عليهم
استيلاءه على ذلك يراجع مفردات الراغب الاصفهاني مادة
«حنك» ص / ١٣٣ .
- (١٩) موريس بوكاي : دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة . ص /
٢٥ ط . المعارف القاهرة . ١٩٧٨ م (الترجمة العربية) .
- (٢٠) قاموس الكتاب المقدس : مادة فدى ص / ٦٧٢ ، عمد ص / ٦٣٧ / ٦٣٨
عن اسرار الفداء والمعمودية . ط . بيروت ١٩٦٤ م (باشراف
د . بطرس عبد الملك وآخرين) .
- (٢١) بتون (١٩٦٧ م : : الفصل السابع عن : السيادة البيضاء في الولايات
المتحدة الامريكية ص / ١٣١ - ١٦٣ والفصل الثامن عن
السيادة البيضاء في جنوب افريقية ص / ١٦٤ - ١٩٢ . وهناك
مكتبة كاملة عن الصراع العنصري وما قام به السود دفاعا عن
حقهم في حقوقهم الانسانية وبرز كتبها واوسعها انتشارا في
اعوامنا هذه «الجدور» لالكس هيلي :

الرسول والفرقة العنصرية^(٢)

د. عبد العزيز كامل

(١١) مع البرهمية والهندوكية.

لكل دين ايجابيات اعطته القدرة على البقاء وتنظيم الحياة. وحينما جاء الاسلام اقر ما كان قبله من مآثر رآها للبقاء، ووضع عن الناس الآصار والاعلال التي كانت عليهم. واقرب النماذج الى ذلك ما كان بين الجاهلية والاسلام. ويمثلها قول المصطفى عليه الصلاة والسلام يوم فتح مكة «الا كل مأثرة اودم او مال يدعي فهو تحت قدمي هاتين الا سدانة البيت وسقاية الحاج». (٢٢).

وفي الديانة الهندوكية نقرأ في الرج - فيدا كمثال:

«اذا كنا اخطأنا في حق من احبنا، واسأنا الى صديق او صاحب وأذينا جاراً او غريباً... فاغفر لنا عدواننا» (٢٣). والهندوكية تؤمن بتعدد الالهة وان كانت ترد هذا التعدد في قمته العليا الى اله واحد. (٢٤).

ولكننا هنا سنقصر القول على ما يتعلق بالفرقة العنصرية. وهي امر لا ينكره حتى كبار فلاسفة الهند وان حاولوا ان يبرروا ظروفه التاريخية:

يقول رادا كرشنان عن الانقسام القديم للمجتمع الهندي الى أربع طبقات:

«حتى نفهم الطريقة التي نشأ بها هذا الوضع ينبغي أن نذكر ان الغزاة الآريين كانوا متميزين عن السكان القدامى ولهم اصولهم العنصرية. وكان

الآريون القدامى طبقة واحدة، ويمكن ان يصبح الواحد منهم كاهنا او محارباً او تاجراً او زارعاً، ولم يكن هناك امتياز خاص اول الأمر للكهنة. وادى تعقد الحياة الى تقسيم الطبقات بين الآريين. وبدأ تميز نظام الكهنة والارستقراطية عن الطبقة العاملة. كان اصطلاح الفايسيا يطلق اول الأمر عليهم جميعاً. وعندما اخذ تقديم القرابين للآلهة دوراً هاماً في المجتمع، تقدمت بعض الاسر التي تميزت بالعلم والحكمة والمواهب الادبية على غيرها في اداء الشعائر الدينية. ومع تطور الديانة الفيدية وكثرة شعائرها كوت هذه الاسر من نفسها طبقة خاصة. ولما كانت هذه الطبقة تتولى الحفاظ على تقاليد الآريين، اعفيت من ضرورات الصراع من اجل البقاء. اما اولئك الذين شغلهم الضرب في الارض وكسب العيش فلم يكن عندهم من وقت طويل ينفقونه في التفكير والتأمل.

بهذا تكونت طبقة مختصة بالامور الروحية. واصبح «البراهمة» ارستقراطية عقلية مختصة بصياغة الحياة العليا للناس. وتلى «الكاشترية» مسؤولية الحكم ورعاية البراهمة. وكلمة «كشاترا» تعني الحكم والسيطرة. تحمل نفس المعنى في اللغة الفيدية والنصوص الفارسية. وكان الباقون هم عامة الناس من التجار والزراع والمحترفين او «الفيسية». واذا كان النظام بدأ مهيناً، فسرعان ما تحول الى وراثي في كل هذه الطبقات الثلاث. ولهم دائرة واسعة تجمعهم. وبينهم وبين الجماعات المقهورة خندق واسع. وينقسم هؤلاء المقهورون الى قسمين:

الدرافيديين الذين يكونون الطبقة الرابعة، والقبائل البدائية وهم في حضيض المجتمع.

فالتقسيم بين الآريين والداسيا - او بين الغزاة والمقهورين عنصري يستند الى السلالة والدم. ومع اختلاف النظريات في اصل الطبقة الرابعة - السودرا - وهي التي تخدم الطبقات الثلاث الاعلى، وهل هي كلها من السكان الاصليين

ام من ان الآريين جاءوا ومعهم فكرة النبذ، او ان المنبوذين جزء من السكان الاصليين فقط. (٢٥). الا ان الحقيقة القائمة من قديم، والتي ظلت عبر التاريخ نحو ثلاثة آلاف عام، هي ان المجتمع الهندي تتميز فيه اربع طبقات كبرى تنطوي تحتها فروع كثيرة. هذه الطبقات هي البراهمة والكشاترية والفيسية والسودرا (٢٦).

ويذكر رادا كرشنان ان نظام الطبقات ليس آريا ولا درافيديا، وانما جاء ليقابل حاجات المجتمع عندما عاشت اجناس مختلفة معا في ونام - هكذا يقول - وكان الهدف هو صالح البلاد مهما تكن النظرة الحالية اليه.

وكانت هذه - عنده - الطريقة الوحيدة لحماية الحضارة التي هددتها اخطار وخرافات اعداد ضخمة من السكان الاصليين. وذلك بوضع معالم حديدية للفوارق الحضارية والعنصرية (٢٧). ولسوء الحظ فان هذا الاسلوب الذي ارادوا به حماية النظام الاجتماعي من الانهيار والفناء قد عاق المجتمع حتى عن مجرد النمو. ولكن هذا لا يدعوننا - والقول لرادا كرشنان - الى ان نحترق نظام الطبقات عندما جاء اول مرة. فان الهند بنظام الطبقات قد استطاعت ان تحمل بالسلم قضاياها العنصرية الداخلية التي حلها غيرهم عن طريق القتال.

ويرى ان هذا النظام حفظ كلا من المنتصر والمهزوم وعاشا معا في ثقة وانسجام» (٢٨).

آثرت ان اذكر هذا بشيء من التفصيل، لان نظام الطبقات في الهند هو اقدم النظم العنصرية واعمقها جذورا. نظام استطاع ان يستمر مدة ثلاثين قرنا - وان عراه تغير - . وحدثت بينه وبين الاسلام مواجهة عقائدية وتطبيقية في الحياة اليومية، كانت من اسباب تكون باكستان:

١ - ولقد أحس الهنود أنفسهم بقسوة هذا النظام. وظهر هذا الاحساس في التراث الديني، وابان عنه صراع الآلهة عندهم:

لقد صور كتاب الرج - فيدا الاله «اندرا» ممثلاً لروح الاربين المنتصرين وملاحهم: صوره أشقر. جميل الصورة. له مركبة حربية خيولها شقر. هو الاله البطل الذي حارب سكان الهند الاصليين ودمر مدنهم واقتحم حصونهم وامعن فيهم قتلاً حتى الجأهم الى الغابات والصحاري والجبال. وتمر القرون وتأتي الاساطير الشعبية الهندية كما تمثلها ملحمة «المهابراتا» لتبرز شخصية اله آخر هو «كرشنا» اله أسمر اللون كأنه رمز المقهورين. يضيق بجبروت اندرا الذي تحول الى طغيان، وحرب للنسك والزهاد، وغواية للنساء. وتدور الحرب بين اندرا وكرشنا، او قل بين البيض والسود، او بين القاهرين والمقهورين، وتنتهي خضوع اندرا الاشقر لكريشنا الاسمر. (٢٩).

٢ - وتصور الربح - فيدا في جزئها الاخير نظام الطبقات محاولة رده الى نشأة الخليفة. فالانسان الاول «بوروشا» اخرج من رأسه اول برهمي، ومن ذراعيه اول كشاتري، ومن ساقيه اول فيسي، ومن قدميه اول سودري (٣٠). وعلى هذا الاساس تحددت الطبقات واعمالها، واتخذت من سمرة السودا مدعاة لوضعها في أسفل الطبقات. وتأتي المهابراتا فتذكر ان البراهمة شقر، والكشاتريه حمر، والفيسيا صفر، والسودا سمر. وكأنها تحدد الهجرات البشرية التي جاءت الى الهند وحاولت الاستقرار فيها. المهابراتا بعد هذا تعلي من شأن نسك وزهاد لهم آباء او امهات من السودا مثل فيديورا وفياسا، دون ان تقصر الفضل على البراهمة كرجال دين، والكشاتريه كرجال حكم وحرب. واذا كانت المهابراتا تمثل صيحة احتجاج شعبية ضد السيطرة البرهمية، التي يمثلها الرج - فيدا، الا ان نظام الطبقات بكل ثقله الاجتماعي والسياسي والاقتصادي، استطاع ان يستمر في الحياة الهندية (٣١).

٣ - وتؤمن الهندوكية، بعقيدة التناسخ. ويقصد بها العودة بعد الموت الى الحياة في ولادة جديدة. والصورة الجديدة «جزاء» لعمل الصورة السابقة. هذا هو قانون «الكارما». وبه تكون الولادة الجديدة، في صورة اسمى، اذا كان

الانسان عمل صالحا، وقد تكون في صورة انسان ادنى او حيوان او نبات اذا عمل غير صالح. وذلك في سلسلة - لا سبيل الى قطعها - الا بالاخلاص في العمل والواجبات الدينية والمعرفة وما ترتبط بها من مران خلقي طويل بالتأمل والتركيز. اي بنوع من اليوجا. فاذا نجح الانسان في ذلك اتحدت روحه بعد الموت مع «براهمان» الروح الكلي لهذا الوجود. (٣٢).

فالحياة حسب التناسخ والكارما - عمل وجزاء في ذات الوقت. والمسؤولية الفردية غير كاملة. واذا كنا رأينا التفرقة العنصرية قائمة على مستوى الطبقات، فهي هنا تزداد حدة حين تدخل قيود التناسخ والكارما على المستوى الفردي ايضا.

ولقد حاول كبار المفكرين الهنود ايجاد صيغ جديدة من الهندوكية، تقل بها وطأة العنصرية القديمة، وتعطي مجالا اوسع للمسؤولية الفردية. ورغم ما تلقاه الهندوكية من منافسة البوذية والمسيحية والاسلام، ورغم الجهود الإصلاحية والتجديدية فيها، فقد بقيت القوة الكبرى في الهند. وبقي نظام الطبقات ومكانة البراهمة على راس السلم الاجتماعي اساس الحياة بها (٣٣).

ومع مسار الحياة ظهرت طبقات جديدة كانت قبائل من قبل. وتنوعت الحرف، وتبدلت المساكن، حتى زادت الطبقات عن ثلاثة آلاف، تحتها طبقات فرعية. ولكن هل استطاع هذا ان يصمد أمام المد المعاصر؟ لا. بالاحتكاك بالفكر العالمي، واتساع فرص التعليم، وتأثير حياة المدينة، بكل ما تحمل من متطلبات الحياة والسكنى والطعام والانتقال والعمل وصعوبة او استحالة الاحتراز في التعامل اليومي من طبقات أو جماعات معينة. كل أولئك قد هز قوائم نظام الطبقات، وكان يعطي الدليل بعد الدليل، في الحياة اليومية، على أن عنصرية هذا النظام لا تستطيع أن تصمد أمام تدفق الحياة.

فقد حرم القانون عام ١٨٢٩ شعيرة حرق الزوجة بعد موت زوجها، وصان

عفاف البنات من شهوات بعض المعابد في جنوب الهند. (٣٤) حتى أن بعض كتابهم يقول عن الموقف العقلي لبعض الهنود المثقفين «ثم لمسوا العلم فإذا بعقائدهم القديمة قد تحطمت أشلاء كأنما نزلت بها نازلة ساحقة، ولما تجرد هؤلاء الهنود المستغربون عن عقيدتهم الدينية التي هي روح الهنود ولبابها، عادوا إلى وطنهم وقد زالت عن أعينهم الغشاوة التي كانت تزين القبيح، وسادهم الحزن، وسقط ألف آله أمام أعينهم من سمائهم صرعى» (٣٥).

ومن البديهي أن هذا القول لا ينطبق على الجميع، وإن كان خط التطور يشق طريقه مقتربا من العدالة مبتعدا عن مقاييس التفرقة العنصرية.

أذكر هذا الصراع الطويل كله، وأذكر معه كلمة خاتم النبيين عليه الصلاة والسلام «الناس لآدم. وآدم من تراب. اكرمكم عند الله أتقاكم».

وأذكر الإخاء الإنساني الذي نادى به القرآن الكريم، وطبقه الرسول في حياته اليومية.

(١٢) مع البوذية.

يقول ول ديورانت أننا لا نعرف شيئا عن بوذا معرفة اليقين. وما نذكره ليس تاريخا يراد إثباته ولكنه جزء من التراث الهندي والأسوي (٣٦).

ويحدد العلماء مولد بوذا بقرب من عام ٥٦٣ ق. م. وتتناول الأساطير بقايا قصته وتتحدث عن المبشرات بمولده! وما رأت أمه في منامها، وكيف فسره كبار البراهمة بأن وليدها سيكون ملكا على الدنيا بأسرها. ثم جاءها المخاض إلى جذع شجرة، ونزل الوليد طاهرا كما ينزل الواعظ من منبر وعظه، وأشرقت السماء بالنور وأقبل الملوك من أطراف البلاد يرحبون بمقدمه. ونمر سريعا على طفولته السعيدة في قصر أبيه الحاكم، ورعايته العسكرية باعتباره من الكاشترية، والدينية على يد البراهمة، وكيف تزوج وعاش في كنف السعادة حتى خرج من القصر يوما، فرآى كهلا. وفي اليوم الثاني رأى مريضا. وفي

الثالث رأى ميتا. وجرت خواطره: كل شباب إلى كهولة وشيخوخة، وكل صحة إلى مرض، وكل حياة إلى موت. وما دمت ممن يجوز عليهم الولادة بما فيها من تعاسة فلأبحث عمن لا يولد. عن السكينة العليا. عن النرفانا. (٣٧).

ويقرر إعتزال حياة النعيم ويدع القصر والوالد والزوجة والولد الصغير، ويأوي إلى حديقة يفرغ فيها إلى تأملاته. يستعين على التأمل بالصوم الطويل والزهد في كل متاع الحياة، ثم استعان بالصمت الطويل، ثم أشرق في نفسه أن تعذيب النفس ليس طريق الحياة. بل أحيانا يصحب نجاح الفرد في مجاهداته نوع من الزهد، الذي تضع به قداسة ما يصنع. فاقلع عن هذا، وجلس ساكنا في ظل شجرة مصمما ألا يبرح المكان حتى يأتيه «التنوير».

وفي تأمله هذا يرى الحياة تياراً متدفقاً «ولادة وفناء»، وعودة إلى الحياة في ولادة جديدة دنية أو سنية، خيرة أو شريرة، سعيدة أو شقية حسب ما يكون لها من «كارما» وفق ذلك القانون الشامل الذي بمقتضاه سيلقى كل فعل خير ثوابه، وكل فعل شرير عقابه، في هذه الحياة أو في حياة تالية تتقمص فيها الروح جسداً آخر. (٣٨).

ولا سبيل لوقف هذه الولادة إلا إذا استطاع الإنسان أن يعيش حياة يسودها العدل الكامل، والصبر والشفقة على الناس. بل على الكائنات جميعا، فإذا تطهرت النفس من كل سوء اتحدت باللانهاية اللاواعية. وأدركت النرفانا.

ولا تكتفي البوذية بتطبيق عقيدة التناسخ والكارما على مستوى فردي وإنما هناك كارما للجماعات يسمونها «الداتو» (٣٩).

وكما أن هناك صورا غير محدودة للكارما، ف كذلك للداتو صور غير محدودة، تتدرج من أنظمة الوجود الكبرى كالمجرات السماوية والأجناس والحيوانات الى التجمعات البشرية والجماعات والنقابات والأسر، حتى إلى ما بين اثنين تحابا أو تعاديا. ولا يقتصر الأمر على الحياة والكراهية، وإنما يمتد

إلى نمو الأجناس وضعفها، وقيام الممالك وانهيارها، فكل حركة صغيرة أو كبيرة في الكون هي حلقة من حركة كونية كبيرة من قوى الكارما والداتو.^(٤٠)

وكان لهذا إنعكاسة مع حياة الأفراد والجماعات. فأعطت لها إمتدادات تسبق الحاضر، وتمتد إلى ما حوله، وما بعده، وتنوع لتشمل مناسط الحياة جميعا. كلها ينبغي أن يتناولها التطهير حتى تتجنب مهاوي الكارما السيئة. وتبدو في البوذية أهمية تدريب الفكر والإرادة على تركية أي عمل، كما أنها أشاعت المحبة فيها بينهم وهنا يكمن جانب من أسس الإحسان والرحمة في المجتمع البوذي والتعاون بين الأفراد وكثرة مؤسسات البر وتشجيعها^(٤١).

ومع ما في البوذية من نزعة تشاؤمية أو قدرية - بمفهوم الكارما والداتو - فقد انتشرت انتشار واسعا في العالم الآسيوي. وعندما طلب تلاميذ بوذا منه أن يحدد معنى الحياة السليمة، صاغ لهم قواعد خلقية خمسا يهتدون بها قد تكون أشمل نطاقاً واعسر التزاماً من الوصايا العشر الواردة في العهد القديم. هذه الوصايا هي:

(١) لا يقتلن أحد كائنا حيا.

(٢) لا يأخذن أحد مالم يعطه.

(٣) لا يقولن أحد كذبا.

(٤) لا يشربن أحد مسكرا.

(٥) لا يقيمّن أحد على دنس.^(٤٢)

وتحس روحاً انسانية عامة في وصاياه «على الانسان أن يتغلب على غضبه بالشفقة، وأن يدفع الشر بالخير، والكراهية بالحب».^(٤٣)

وواضح في اعتقاد البوذية في الكارما والداتو أنها تجعل الفرد أو المجتمع مسؤولاً عن أعمال غير أعماله، عن أجيال غير أجياله. وهذه أبرز نقاط تعارضها

مع المسؤولية الفردية التي يؤكدّها الإسلام. ﴿وكلهم آتية يوم القيامة فرداً﴾. [مريم: ٩٥].

ولا تبعد بنا كثيراً - من هذه الزاوية - عن عقيدة «الخطيئة الأولى» في العهد القديم. وبها تمسكت اليهودية والمسيحية. وإذا كانت المسيحية قد عالجت الخطيئة بعقيدة «الفداء»، فإن البوذية عالجت «بالنرفانا».

ولم تأت فيها بجديد وإنما تابعت فيها الهندوكية وبهذا تكون البوذية. - إذا جاز لنا أن نستخدم هذا التعبير - هي «العهد الجديد» للهندوكية أو أحد صور هذا العهد الجديد.

ولكنها في ذات الوقت كانت كالنهر الذي ينحت في هدوء وتصميم ليقطع من طريقه صخوراً ويشق لنفسه مجرى: وكانت الصخرة نظام الطبقات الهندوكي وامتيازات البراهمة.

فمع أن بوذا كان من الكاشترية وعاش حياة النبلاء، إلا أنه فتح ذراعيه للجميع، لكل إنسان مهما يكن من وضعه أو طبقته التي ينتمي إليها.

يقول بوذا لتلاميذه بكل وضوح «انتشروا في الأرض كلها وانشروا هذه العقيدة. قولوا للناس أن الفقراء والمساكين، والاعنياء والاعلين، كلهم سواء. وكل الطبقات في رأي هذه العقيدة الدينية تتحد لتفعل فعل الانهار، تصب كلها في البحر»^(٤٤) ويرفض الاعتقاد في أي كائنات أعلى من هذه الطبيعة كما يرفض تقديم القرابين للآلهة أو الدعاء لكائن أعلى. ويرى أن طريقه هو الخلاص للكافرين والمؤمنين.

جانب المساواة في هذه العقيدة فتح أمامها باب القبول أمام أهل جنوب شرق آسيا، مع شعور الإنسان فيها باحترامه لذاته بعد أن نأت البوذية بنفسها عن نظام الطبقات. ولكن سرعان ما تسرب إليها براهمة الهندوكية وكونوا فيها طبقة من الكهنة التي أثرت مما ابتدعوه في البوذية من شعائر ومناسك، حتى وصل

الامر الى صدام بينهم وبين الحكومات من اجل السلطان والثروة - كما حدث في الصين - (٤٥). بينما نظرت اليه اليابان نظرة ودودا. وازداد عدد الرهبان والعباد في سيام وسرى لانكا (سيلان) وبورما، وتعددت فيها مناشطهم الاجتماعية والتربوية والثقافية.

ومما يستوقف النظر ان تنفي البوذية وجود الخالق الذي يسأل الناس عما يفعلون، وتعطي الفرد مكانته دون ان تقيد بنظام الطبقات، ثم تقيد بعد هذا بعقيدة من الكارما والداتو وكأنها نفت جانب الغيب من العقيدة، ثم عادت فأدخلت فيها غيباً جديداً لا نستطيع له تفسيراً.

(١٣) مع الكونفوشية والتاوية.

عاش كونفوشيوس بين (٥٥١ - ٤٧٩ ق . م) ووضع لأهل الصين فلسفة عملية تقوم على أسس دينية وأخلاقية إنسانية. كان معلماً ومؤرخاً يعني بالواقع الذي يعيشه الناس دون أن يشغل فكره أو فكرهم بما وراءه. كان يؤمن بوجود كائن أعلى يسميه «السماء». وهو قوة مدبرة للكون ذات صفات روحانية وأخلاقية. وآمن بعدالة القدر وأداء العبادات والصوم. وعني بالعلاقات الاجتماعية الرئيسية وهي عنده خمس: العلاقة بين الأب والإبن، وبين الزوج وزوجه، وبين الأخ الكبير والأخ الصغير، وبين الصديق والصديق وبين الحاكم والرعية. وهذه العلاقات يحكمها مبدأ عام هو «لا تعامل الغير بما لا تحب أن تعامل به» كما تحكمها الأداب والعادات الحسنة المأثورة. ويجمع كونفوشيوس الخلق الكريم كله في كلمة واحدة هي «جن» او «ين» وعندما سئل عن مفهومها قال في ايجاز أحب الناس . . . وبشرح أوسع «أحب الناس بسرور ومن صميم قلبك» (٤٦).

سأله أحد مريديه عن عبادة الأرواح السماوية والأرضية فكان رده: نحن لا نعرف كيف نخدم الإنسان، فكيف نعرف عن خدمة الأرواح. ؟
فسأله المريد: وماذا عن الموت؟

قال كونفوشيوس: نحن لا نعرف عن الحياة، فكيف نعرف عن الموت؟ وكان يقول: إن الرجل الحق هو الذي يتبع القواعد دون ضغط من الخارج ويكره ما يعارضها دون خوف من عقاب^(٤٧).

ولا نجد في الكونفوشية ما يهدر كرامة الإنسان. لا من حيث الأصل، ولا السلوك في الحياة، ولا الرقي الاجتماعي مادامت مواهبه تؤهله لذلك، وليست هناك من عقبة لونية أو غير لونية تعوقه عن التقدم.

كانت عناية الكونفوشية بالتماسك الاجتماعي في نظام مركزي يبدأ من الأسرة، ومكانة الأب فيها راسخة، حتى الدولة حيث الإمبراطور هو الأب الكبير. ويظل احترام الآباء قائما بعد موتهم، احتراما يصل إلى التقديس. فكان في المجتمع ترابط رأسي وأفقي استطاع أن يحفظه رغم المجاعات المدمرة ودورات الجذب والمجاعات والحروب.

وعاش هذا المجتمع سماحة دينية نادرة. يقول حكيمهم «كل الناس بين البحار الأربعة إخوة» وعجبوا عندما اتصلوا بالحضارة الحديثة ورأوا فيها حروبا لم تثرها إلا العصبية الدينية الجامحة، كما في الحروب الصليبية مثلا. ولم يكن غريبا في الصين أن يعتقد أحد أفراد الأسرة مذهبا معينا، والآخر ديناً غيره، والثالث يخالف الإثنين، والجميع يعيشون في وئام.

ولا تختلف التاوية عن الكونفوشية في هذا المجال من حيث احترامها للإنسان وإيمانها بالمساواة. وهي الأخرى نشأت في القرن السادس قبل الميلاد. والتاوي هو الطريق. وإذا كان تركيز الكونفوشية على السلوك الاجتماعي، فإن تركيز التاوية على التربية الذاتية، وترمي إلى تآلف بين الإنسان والكون وبين الكائنات بعضها مع بعض. وتعتبر مبادئها أقدم ما أخرج الفكر الصيني من قيم إنسانية لها طابعها العالمي الداعي إلى كرامة الإنسان.^(٤٨)

ولقد مرت كل من هاتين الفلسفتين بمراحل وتطورات من عهد كونفوشيوس

ولا وتسي حتى العصور الحديثة. ولكن يعيننا منها موقفها من الإنسان، من حيث التفرقة العنصرية أو المساواة.

وقبل أن أدع هذا العرض المقارن أود أن أذكر أن الفكر الصيني لا يماثل الفكر الحديث أو الغربي من حيث البناء المنهجي الذي يضع المقدمات والنتائج ويقسم الموضوعات، ويتناول كلا منها على حده دون استطراد، ولكنه أقرب ما يكون إلى تدفق النهر أو سير الحياة وتنصب فيه مجموعات ضخمة من الحكم والتراث والخبرات الإنسانية والقصص. وعلى الذين يدرسونه أن يدركوا طبيعته وعنايته بالقيم والممارسات الإنسانية والتطبيقية أكثر مما يعني بالجوانب النظرية في الحياة.^(٤٩)

وإذا كانت الكونفوشية تؤمن «بالسما» فهي تحمل أكثر من مفهوم: الذات العليا. قوانين الكون. عالم الاخلاق.^(٥٠) ويختلف هذا اختلافا جوهريا عن «عالم الالهة» الذي رأيناه في الهندوكية والتباين بينهم، وكأنه جاء إنعكاسا للفروق بين العناصر والسلالات التي كونت سكان الهند.

لم أجد عند دراسة الكونفوشية والتاوية أثرا للتفرقة العنصرية. ووجدت المسؤولية الفردية مدمجة في المسؤولية الجماعية عند دراسة البوذية. وبدت التفرقة العنصرية في أشد صورها مع دراسة الفكر الهندي.

وبعد هذه الرحلة نعود إلى الجزيرة العربية حيث مهد الإسلام، وإلى عهد النبوة لنجمع خيوط البحث التي نشرناها شرقاً وغرباً، ولنا قبل ذلك:

(١٤) وقفة مع العلم الحديث.

عنيت الأمم المتحدة ومنظماتها المتخصصة بمشكلة التفرقة العنصرية، وأصدرت فيها أكثر من وثيقة، تختلف في التفاصيل التي عرضت لها، وتلتقي جميعا في أساس المساواة الإنسانية العريض.

كمثال: جاء في «بيان عن العنصر والتمييز العنصري» الصادر في باريس

سبتمبر ١٩٦٧ م ، عن مجموعة من العلماء العالميين بدعوة من هيئة اليونسكو: وإن الناس جميعاً ولدوا أحراراً ومتساوين في الكرامة والحقوق. جميع الناس الذين يعيشون الآن يرجعون إلى نفس الجنس وينحدرون من نفس الأصل. إن تقسيم الناس إلى أجناس، جزء منه إعتيادي وجزء منه تحكيمي.

إن معرفتنا البيولوجية الحالية لا تتيح لنا القول بارجاع انجازات ثقافية إلى فروق في الإمكانيات الوراثية (الجينية). وإن الفروق في الانجاز بين مختلف الشعوب ترجع فقط إلى تاريخها الثقافي. إن العنصرية تزيّف معرفتنا بالبيولوجيا الإنسانية. ولكي نجتث العنصرية، لا يصح الاكتفاء بأن يفند البيولوجيون خرافاتها، وإنما على علماء النفس والاجتماع أن يبينوا أسبابها. فالبناء الاجتماعي عامل هام دائماً. (٥١).

(١٥) خاتمة.

وتصل بنا هذه الوقفة الى المرحلة الختامية في هذا البحث وفيها نرى:

١ - إن ما انتهت إليه سفينة العلم الحديث بعد رحلة طويلة - سعياً إلى الإخاء الإنساني - التقى مع ما جاء به القرآن الكريم وحياً من عند الله تعالى ونادى به الرسول (ص) مبشراً ونذيراً.

٢ - إن حياة المصطفى ﷺ، كانت تصويراً حياً لما دعا له من المساواة بين الناس. وإن هذه المساواة كانت في حياته الأسرية الخاصة وفي حياته العامة.

٣ - إنه دعا أصحابه إلى الإيمان بهذه المساواة، ونبذ دعوى العصبية والجاهلية وتعظمها بالآباء، وأدان أي إنحراف عن هذا النهج السوي.

٤ - إننا في دراستنا المقارنة رأينا كيف عالج القرآن موضوع خطيئة آدم بحيث لم يجعل أبناءه مسؤولين عن أي جانب فيها. وإن آدم جاء إلى الدنيا مغفوراً له ليقوم بمسؤولية خلافة الله في أرضه. ونحن جميعاً أبناء نبي كريم

وحياتنا الدنيا ليست عقوبة ولا تكفيراً، ولا تحتاج - في العقيدة الإسلامية - إلى تكملة يحمل مسؤوليتها من يخلص الناس من الخطيئة ويفديهم. فالتوبة والمغفرة في الإسلام جزء من قصة آدم. ذلك لأننا لو سلمنا بانتقال الخطيئة لفتحنا الطريق لانتقال أثر اللون والعنصر. وتتفي بهذا قاعدة المساواة، كما يصورها الإسلام. ومن الزاوية يبدو جانب من التباين في قصة الخلق كما جاءت في القرآن الكريم وما جاء في سفر التكوين من العهد القديم وما ترتب عليه في العهد الجديد.

هذا إلى أنه في العهدين - إلى جانب ذلك - نصوص عن الإخاء الإنساني والعدل وإدانة العنصرية تلتقي مع ما جاء به الإسلام وما ينادي به العلم الحديث.

٥ - فإذا انتقلنا إلى الشرق الأقصى وجدنا العنصرية في أشد صورها كما تصورها الهندوكية القديمة، وكيف انتقل الصراع من البشر عندهم إلى الآلهة على أساس عنصري. والكتب المقدسة عندهم مجهولة الأصل يستوي في هذا الفيدا والمهابراتا وغيرهما. وإذا كان البراهمة قد أحاطوها بكل هذه القداسة، فإن الحقيقة العنصرية فيها لا تخفى في الدين ولا في الحياة. واضطرت الهندوكية تحت ضغط الحياة إلى التخلي عن جوانب من صلابتها القديمة اقتراباً من الإخاء الإنساني.

٦ - وتأتي البوذية في جوهرها ثورة فكرية على الهندوكية، تنادي بالمساواة بين الناس، ولكنها تظل محتفظة بعقيدة التناسخ وبها تنتفي المساواة.

هي تؤمن بالكارما الفردية والجماعية. ولكن البوذية في مجموعها أقرب إلى العدالة كثيراً من الهندوكية، وجذورها التاريخية معروفة: من بوذا الذي طلب التنوير إلى أتباعه الكبار من بعده، ورؤوساء المدارس الكبرى في نحلته.

٧ - وإذا كانت الكونفوشية قد عنيت بالأرض والحكومة والناس والنظام

الإجتماعي . فإنها قللت كثيرا من مساحة السماء في العقيدة، وركزت على احترام الدولة والآباء احتراماً وصل إلى التقديس . والقضية في الكونفوشية أنها لا تعني كثيراً لا بالبدء ولا بالمعاد . وإنما تعني بما هو هنا . بحياتنا نحن . بينما تركز التاوية على التربية الذاتية دون عناية كبيرة أيضاً بالبدء والمعاد . وإيمان التاوية بالمساواة كريم . هنا نجد فيلسوفين تحولت آراؤهما إلى ديانات ، وإن لم يناديا بدين جديد . نادى كل منهما بطريق . طريق بالمفهوم العقلي والنفسي والإجتماعي . أحدهما يركز على الخارج والمجتمع ، والثاني على الذات والداخل . ينصرفان عن البدء والمعاد اشتغالاً بواقع الحياة ، ولا يدعان للغيب إلا القليل . وهنا يبدو جانب من الفرق الكبير بين الإسلام وبينهما .

٨ - وينادى العلم الحديث بالمساواة بين الناس ويدين التفرقة العنصرية ، ولكن ما هي الوسيلة لتطبيق ذلك ؟ القول جميل ولكنهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً . العسف الذي يلقاه الأفريقيون فوق أرض قارتهم في أقصى الجنوب . ما يلقاه إخواننا وأهلنا تحت الاستعمار الإسرائيلي .

البطش الذي يلقاه إخواننا من الأقليات الإسلامية في بعض أقطار الشرق الأقصى .

الحاجز اللوني الذي لا زالت آثاره قائمة في الحياة الأمريكية .

وبعض هذا تسرب إلى أقطارنا الإسلامية . وفي عدد من قضايا السياسة وصراعاتنا كان صوت القومية - والطائفية والعنصرية أحياناً - أعلى من صوت الدين . فالعنصرية عريقة في الإنسان . وعندما نادى الرسول ﷺ بالمساواة بين الناس وجد بعض العقبات وأرادت العنصرية أن ترفع رأسها حتى بين الصحابة فبادرها المصطفى ﷺ بالإدانة ونبه أصحابه إلى دعوات الجاهلية وتعاظمها بالآباء والتكاثر بهم .

وهنا تبدو أهمية الربط بين القول والعمل وبين العقيدة والتطبيق ، بحيث تصبح هذه القواعد نماذج حية تسير بين الناس حبا وإخاء ورحمة .

هذه الزاوية تميز بها الإسلام عن العلم الحديث: تطبيق العقيدة والأمر
الالهي فور نزوله. أن يكون المصطفى ﷺ القائد الذي يبدأ بنفسه، ويدعو من
حوله ليعطي الإنسانية صورة من الوحي حيا ناطقا.

وليكون المجتمع الإسلامي إسلاما منظوراً متحركاً إلى جانب الإسلام
المقروء.

(١٦) وعلينا مسؤولية.

ما قصدت بهذا البحث أن يكون مجرد دراسة مقارنة تضاف إلى دراسات
سابقة. ولا أستطيع القول بأن نتائج الدراسة المقارنة كانت بهذا الوضوح في
ذهني قبل البدء فيها. ولكنني أحسست كثيراً من الاطمئنان والمسؤولية عندما
بدأت اكتب خاتمة البحث.

فالمصطفى ﷺ أرسله الله رحمة «للعالمين» لا يختص بعصر دون عصر،
ولا أمة دون أمة. والإسلام له إمتداده الزماني والمكاني والموضوعي. هو
«كلمة الله» إلى الناس. وحين تكون كلمته بهذه القوة وهذا الوضوح والبساطة،
فهي من قبل ومن بعد هدية رب الناس إلى الناس. ليس في قوتها انتصار جنس
ولا عنصر على عنصر ولا دين على دين.

ولقد رأينا كيف تسير الديانات والفلسفات سيراً حثيثاً أو بطيئاً. نحو ما نادى
به المصطفى ﷺ من وحي رب العالمين. وكيف يسير العلم أيضاً في هذا
السبيل. وكيف تتقارب جهود الإنسانية في مجالات الاجتماع والنفس والثقافة
وعلم الحياة ومجامعها الدولية. وكيف تتلاقى الأفكار، لتحقيق ما أراد رب
الناس للناس، وما جاء لسان خاتم النبيين مصداقاً لما بين يديه وهدى الناس
أجمعين.

حقاً. لقد شهد المجتمع الإسلامي مشكلات من التفرقة العنصرية، ولكنه
استطاع أن يذيب الكثير. وكانت إفاقة أسرع من أفافة مجتمعات سبقته على

طريق العلم الحديث. لا تزال الأغلال مسموعة فيها، ومشكلات التفرقة العنصرية نابضة فوق أرضها بثورة الكلمة والمقاومة والسلاح أحياناً.

وما جاء به الإسلام من نقاء ومساواة علينا واجب إشاعته بين الناس بأكثر من لغة بالكلمة المكتوبة والمسموعة بالحوار. علينا أن نتبع الشبهات التي تثار حول الإسلام: رداً عليها وإظهاراً للحق. فهو من عند الله لا من عند أنفسنا. علينا أن نبرز هذا التلاقي السمع بين ما انتهى إليه العلم وما جاء به الإسلام. علينا أن نؤكد ضرورة اللقاء بين الفكرة والقرار والتنفيذ. علينا أن نتابع السعي لتكون التفرقة العنصرية من مخلفات ماض آخذ في الغروب.

ويحتاج هذا منا الى متابعة في الجهود. وتحويل لها من المستوى الفردي الى المستوى الجماعي. من جهود العلماء الى جهود المؤسسات. هكذا يسير البحث العلمي الآن في عصر تدافع فيه الانتاج الفكري تدافع السيول تحمل الغناء وما ينفع الناس.

ونحن حين نتابع هذه المسيرة متعاونين، لا نؤدي فقط بعض حق الرسول ﷺ علينا، وإنما نعين على أن تصالح الإنسانية ربها، وتدرك عظمة ما أنزل الله على رسوله ﷺ وما هي بحاجة إليه، وما اتفقت فيه كلمة الإسلام مع كلمة العلم.

ما أكرم ما قال وما تتطلع اليه الأفكار والقلوب:

«أيها الناس ان ربكم واحد. وإن أباكم واحد. كلكم لآدم. وآدم من تراب. أكرمكم عند الله أتقاكم. ليس لعربي فضل على عجمي ولا لأحمر فضل على أسود إلا بالتقوى».

وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين.

مكتبة البحث

(٢٢) سيرة ابن هشام ٤ : ٥٤ ط. الحلبي مصر.

(٢٣) رادا كرشنان: الفلسفة الهندية ١٠ : ١١٠ ط. لندن ١٩٥٨ م.

(٢٤) ول ديورانت: قصة الحضارة الجزء الثالث: الهند وجيرانها

ص/٤٠/٤ ط. القاهرة/١٩٥٠ م. ويورد المؤلف في هذه الصفحات نقلاً عن

رج- فيدا في جزئه العاشر حواراً بين الابوين الاولين للبشر جاء فيه «والواحد

الاحد لم يكن هناك سواه. ان من صدر عنه هذا الخلق العظيم. . هو ربنا

الاعلى في السماوات العلى.

(٢٥) رادا كرشنان ١ : ١١٠-١١٢.

(٢٦) دائرة المعارف العالمية للعلوم الإجتماعية- ١٩٧٢ م.

وفي دراسة الهندوكية تتحدث عن الفارنات أو الطبقات الأربع التي خلقت

من جسم الإنسان الأول. وهو بدوره تجسيد للخالق. ولقصة الخلق في الفكر

الهندوكي أكثر من رواية. انظر ٦ : ٣٥٨.

(٢٧) رادا كرشنان: ١ : ١١٣.

(٢٨) نفس المكان.

(٢٩) تذكر الرج - فيدا الصراع بين الآله فارونا وكيف ساد عليه الآله اندرا

ثم كيف يظهر البطل المؤله: كرشنا بين المقهورين (غير الاربيين). كعدو

لاندرا. (رادا كرشنان ١ : ٨٧)، واستطاع كرشنا ان يستعيد في عهد

الياجافادجيتا كثيراً من سلطانه الذي فقده، واتحد مع آلهة اخرى واصبح ابرز

أبطال المهابراتا. . وفيها نرى كرشنا وحوله هالة من التراث الديني لا تزال باقية

حتى الآن: باعتباره بطلاً غير آري ومعلماً روحياً. واله لقبيلة. وكيف تدرج في

المهابراتا حتى أصبح عندهم الآله الأعلى (رادا كرشنان: ١ : ٤٩٤).

(٣٠) دائرة معارف العلوم الإجتماعية ٦ : ٣٥٨ ط ١٩٧٢ م وفيها تفصيل في

هذا الموضوع لا تجده في ط ١٩٦٢ م. ويوروشا عندهم الإنسان الأول وهو

تجسد للاله الخالق.

(٣١) أورد رادا كرشنان (١ : ٤٨٠) تفصيل عن مكانة- من يدعى- فياسا

وانتاجه الأدبي في المهابراتا. ويراجع أيضاً ول ديورانت (٣: ٢٩٢) (٢٩٣) حيث يقول إن المهابراتا منسوبة الى مؤلف اسطوري يسمونه «فياسا» وهي كلمة معناها المنظم: فقد كتبها مائة شاعر وصاغها الف منشد. ثم جاء البراهمة فصبوا فيها أفكارهم وخلعوا عليها صورتها الجبارة التي نراها عليها اليوم. وهي قصة عنف ومغامرة وحروب. والشخص في هذه القصص تتداخل. . بل البشر والالهة عندهم. والذي يعيننا هو بروز أو إبراز شخصيات غير آرية الى المقدمة.

(٣٢) رادا كرشنان ١: ٢٤٤-٢٤٩ ويدرس قانون الكارما كما جاء في اليوبانشاد. ثم يخصص الفصل الذي يليه (١: ٢٤٩-٢٥٦) «للحياة المقبلة».

(٣٣) يدرس ول ديورانت ٣: ١٦٤-١٧٠ تنظيم المجتمع. ونشأة طبقة البراهمة وتطورها، وما كان لهم من امتيازات ثقيلة الوطأة وما عليهم من طقوس يؤدونها وما قاموا به من دور في تنظيم المجتمع.

(٣٤) دائرة معارف العلوم الاجتماعية ٢: ٦٧٨ ط. ١٩٦٢ م ويراجع أيضاً ول ديورانت ٣: ٤٢١ عن تحريم حرق الزوجة وتحريم زواج الاطفال والانقراض السريع لراقصات المعابد.

(٣٥) ول ديورانت ٣: ٤١٤.

(٣٦) نفس المرجع ٣: ٦٤.

(٣٧) رادا كرشنان ١: ٣٤٧ عن نشأة بوذا- المستنير- وعن النرفانا في البوذية

١: ٤٤٦-٤٥٣.

(٣٨) ول ديورانت ٣: ٧١

(٣٩) دائرة معارف العلوم الاجتماعية ٣: ٣٣ ط. ١٩٦٢ م.

(٤٠) نفس المكان.

(٤١) نفس المرجع ٣: ٣٤.

(٤٢) ول ديورانت: قصة الحضارة ٣: ٧٧.

(٤٣) نفس المكان.

(٤٤) نفس المرجع ٣ : ٨١

(٤٥) دائرة معارف العلوم الاجتماعية ٤ : ١٩٨ ط . ١٩٦٢ م .

(٤٦) (فونج يولان : الكونفوشية والتاوية وهو الفصل الثاني والعشرون من كتاب تاريخ الفلسفة شرقاً وغرباً صدر بإشراف رادا كرشنان . لندن ١٩٥٢ م : ١ : ٥٦٣-٥٦٤) .

(٤٧) (لن يوتانج : حكمة الصين ص/٢٩٢ - : لندن : ١٩٦٣م) ويترجم المؤلف وهو صيني الاصل- نصوصاً من حكماء الصين وأبرزهم لاوتسي وكونفوشيوس . كما يدرس مكانة ومنهج الفكر الصيني مقارناً بالفكر الغربي) .
(٤٨) ويلاحظ ان القرن السادس قبل الميلاد كان قرن نشاط فكري وفلسفي وديني كبير : ففيه ظهر بوذا ولاوتسي وكونفوشيوس في الشرق الاقصى كما ظهر النبي أرمياً في الشرق الاوسط . وربما زرادشت في فارس . ويرى لن يوتانج ان كتاب «التاو» او الطريق للاوتسي هو أروع ما صدر عن الفكر الشرقي القديم موضعاً خصائصه : انظر لن يوتانج : حكمة الصين : ص/٢٥ . وفي المقارنة بين الكونفوشية والتاوية : انظر ول ديورانت : قصة الحضارة الجزء الرابع ، الشرق الاقصى : الصين (الترجمة العربية) القاهرة ١٩٥٠ م في آراء لاوتسي ص/٣٠-٣٩ وفي آراء كونفوشيوس ص/٤٠-٦٤ ولن يوتانج ٢٥-٢٩ في عرض الآراء وتليها ترجمة من نصوص كتاب الطريق- والكتاب مترجم الى العربية (مجموعة الالف كتاب . القاهرة) .

(٤٩) لن يوتانج : حكمة الصين : مقدمة الكتاب من ص ٩ الى ص/١٩ دراسة مقارنة في خصائص الفكر الصيني .

(٥٠) (لوشياولين : المميزات العامة للفكر الصيني وهو الفصل الواحد

والعشرون من كتاب رادا كرشنان السابق الذكر (١٩٥٢ م) . ١ : ٥٥٧ .

(٥١) (كيوبر (مشرف) العنصر والمعلم والمجتمع ص / ٣٦٠ - ٣٦٤

اليونسكو ١٩٧٥م) .